ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ٤ ، السنـــــة : ٥١

ربيع الآخر ١٤٤٨هـ ، سبتمبر – أكتوبر ٢٠٢٦م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٦٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٦٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- بين عيسى عليه السلام ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — التحرير — ٣

كلمة العدد

- الاستقامة طوق النجاة وصمام الأمن — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

الفكر الإسلامي

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ٩

دراسات إسلامية

- أثر القرآن الكريم في تطور مبادئ البحث العلمي — الدكتور بكر مصباح تنيرة — ١٥
- من الإعجاز البياني في القرآن الكريم — رئيس التحرير — ٢٢
- رعاية المصلحة في الشريعة الإسلامية — الدكتور عبد الكريم زيدان — ٢٩
- هل الاختلاف مذموم؟ — الأستاذ ماهر بن محمد القرشي — ٣٦
- هذه أعمال دائم ثوابُها — الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد — ٤٢
- طرائف من أخبار الكُتاب — أبو القاسم عبد الله بن عبد العزيز البغدادي — ٤٦

إشراقة

- إيجابية لا سلبية — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ٥٦

كلمة المحرر

بين عيسى عليه السلام ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أرسل الله تعالى رسله – وأنبياءه- في مختلف العصور والمراحل الزمنية المتفرقة هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وبعث الله تعالى رسوله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على فترة من الرسل، ليخرج العباد من عبادة العبادة إلى عبادة الله وحده، وينتشل البشرية من هوة الهلاك والدمار والبدع والخرافات واتباع الأهواء والآباء وإن كان آباؤهم لايعقلون شيئًا ولا يهتدون.

وكان بين عيسى عليه السلام ونبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شبه ومناسبة من وجوه عدة، منها: أن عيسى عليه السلام كان آخر أنبياء بني إسرائيل، فقد كان لبني إسرائيل الحظ الأكبر من النبوات والرسالات من غيرهم من الأمم،قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:٢٠].

فبنو إسرائيل أسعد الأمم وأحظاها بالرسالة والنبوة، فقد بعث فيهم آلاف الأنبياء والرسل، وكان خاتم أنبيائهم عيسى عليه السلام، فانتهت به النبوة في بني إسرائيل. وأما محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخاتم الأنبياء مطلقًا، فلانبي بعده، قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٠].

وبعث نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمةً للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وكذلك وصف عيسى عليه السلام أيضًا بهذه الرحمة المتكاملة، فقال في سياق ولادة عيسى عليه السلام: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ﴾ [مريم:٢١]. وقالت مريم رضي الله عنها: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٠]. فجاء الرد عليه بقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٢١]. فوصِفَ عيسى عليه السلام بالرحمة المتكاملة كما وصف بها نبينا محمد- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بها.

وهناك شبه ومماثلة حتى على مستوى أصحابهما، فقد وصف القرآن الكريم أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح:٢٩]، وقال تعالى عن أصحاب عيسى عليه السلام: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ﴾ [الحديد:٢٩].

وهناك وجوه أخرى من المشابهة والمناسبة بينهما،ولعل هذه المناسبة هي وراء اختيار عيسى عليه السلام من بين الرسل والأنبياء لنزوله قرب الساعة وقتاله الدجال، وتطهير أرض الله تعالى من فتنه التي تقع خلال البيوت كمواقع القطر، فتن عمياء صماء مطلقة كرياح الصيف، ومثل قطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسي كافرًا، فتن على أبوابها دعاة إلى النار. [التحرير]

(تحريرًا في الساعة التاسعة صباحًا من يوم الاثنين: ١٢/٢/١٤٤٨=٢٧/٧/٢٠٢٦م)

الاستقامة طوق النجاة وصمام الأمن

خلق الله تعالى البشر لعبادته و وجه إليه أوامره ونواهيه متمثلة في كتابه الخالد القرآن الكريم وسنن نبيه المصطفى محمد ﷺ، والاستقامة هي طوق النجاة وصمام الأمن والسلامة في الدنيا والآخرة، فما هي الاستقامة يا ترى؟

يقول الراغب الأصفهاني في تعريف الاستقامة: أن يجمع بين أداء الطاعة واجتناب المعاصي، وقيل: الاستقامة ضد الاعوجاج، وهي مرور العبد في طريق العبودية بإرشاد الشرع والعقل. والاستقامة: المداومة. وقيل: الاستقامة: ألا تختار على الله شيئًا.

واستفاضت نصوص الكتاب والسنة النبوية في التأكيد على الاستقامة وكشف أهميتها وحاجة العبد إليها وبيان فضلها، فيقول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١].

قال ابن عطية في تفسير هذه الآية – بعد أن ساق عن عمر رضي الله عنه أنه تلاها على المنبر ثم قال: «استقاموا لله بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب»- قال: ذهب -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- إلى حمل الناس على الأتم الأفضل، وإلا فلزم على هذا التأويل من دليل الخطاب ألا تنزل الملائكة عند الموت على غير مستقيم على الطاعة. وذهب أبو بكر الصديق -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- وجماعة معه إلى أن المعنى ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على قولهم: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾، فلم يختل توحيدهم ولا اضطرب إيمانهم. و روى أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ هذه الآية وقال: «قد قالها الناس ثم كفر أكثرهم، فمن مات عليها فهو ممن استقام».

فكلمة الاستقامة – كما يقول أهل العلم –

رغـم وجازتهـا واختـصارها - تـشمل الـشرائع الإسـلامية كلهـا، فيـدخل فيهـا العمـل بالأحكـام الإلهية واجتناب المحرمات والمكروهات كلها على وجه الاستدامة. فلايسوغ أن يقول المرء: ﴿رَبُّنَـا اللَّهُ﴾ إلا إذا كـان يجزم مـن أعـماق قلبه أنـه لايخطو خطوة ولا يمر عليه حال من الأحوال إذا وهو في عين الله تعالى وأنه لا يتنفس نفسًا واحدًا إلا برحمته سبحانه، ومقتضى ذلك أن يستقيم المرء على عبادته استقامة لاينحرف معها قلبه ولا قالبه عن عبوديته إطلاقًا.

ومن هنا حين قال سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه: يا رسول الله، حدثني بأمر أعتصم بـه، قـال النبـي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «قـل ربيّ الله، ثـم استقم» قال فقلت: ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بلسان نفسه، فقال: «هذا» [سـنن ابـن ماجـه:٣٩٧٣]. وعـن عمـر رضي الله عنـه: اسـتقاموا عـلى الطريقـة ولم يروغـوا روغـان الثعالـب. وعـن عـثمان رضي الله عنـه: أخلـصوا العمـل. وعـن عـلى رضي الله عنـه: أدّوا الفـرائض. وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: استقاموا فعلًا كـما اسـتقاموا قـولًا. وعنـه: أنـه تلاهـا ثـم قـال: مـا تقولون فيها؟ قالوا: لم يذنبوا. قال: حملتم الأمر على أشـدّه. قـالوا: فـما تقـول؟ قـال: لم يرجعـوا إلى عبـادة الأوثان.

ويقول العلامة أشرف علي التهانوي رحمه الله (١٢٨٠-١٣٦٢هـ/١٨٦٣-١٩٤٣م): تـــــوهم بعـض النـاس- نظـرًا إلى بعـض النـصوص- أن الاستقامة عصية شاقة صعبة المنال، وقالوا: إن الله تعالى يقول: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَـابَ مَعَـكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [هود:١١٢] فقد قيد الاستقامة بقوله: ﴿كَمَـا أُمِـرۡتَ﴾، فلو كان أمرها هينًا ميسورًا استغنى عن هذا القيد، فهذا الأمـر يخـص النبـي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ. فـإن الله قـال: ﴿وَمَـنۡ تَـابَ مَعَـكَ﴾، والمعنى استقم كما أمرت، وليستقم من تاب معك كما أمروا. فالأمر الإلهي بالاستقامة موجه إلى كل واحد، على حد سواء.

فـاعلم أن هـؤلاء لايتـدبرون سـياق الآيـة وسباقها، فكانوا فريسة لهذه الشبهة، ولو تأملوا فيه لم يلتبس الأمر عليهم، فإن هذه الآية سبقها ذكر الكفار حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَـدۡ ءَاتَيۡنَـا مُـوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١١٠ وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [هود:١١٠-١١١]. ثم قال: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَا أُمِرۡتَ

وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾، فالظاهر أن هذه الآية قصد بها تسلية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن بغير تصريح، فهي تحمل معنى التسلية حتمًا، فقد ورد مثل هذا المعنى في التسلية صراحة أيضًا، ومن سنة الله تعالى أنه يذكر ما عليه الكفار من الأحوال ويعقبه تسلية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين، ويأمرهم أن ينصرف كل واحد إلى عمله ويكب عليه، ويذر أمر الكفار إلى الله تعالى فهو كافيهم. وهذا ما وقع في هذه الآية حيث ذكر أولًا الكفار وماهم عليه، ثم نبه على أنهم خالفوا حتى الأنبياء، فمخالفتهم لك ليس بدعًا من الأمر، ونعاقبهم. وقد سبقت منا كلمة فلانفصل بينهم في الدنيا فصلًا حاسمًا، ويجزى كل واحد في أجله وميعاده، ثم قال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾، أي مادام ليس لك من أمر عقوبتهم شيء، فلايشتغل بالك وبال المسلمين في الكفار، ودَعوا أمرهم إلينا، وانصرف أنت والمسلمون كذلك إلى ما أمرت وأمروا به. فهذا حاصل الآية، وهل فيه دليل على أن الاستقامة التي أمر بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون صعبة وشاقة؟

وتوهم بعض الناس من قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «استقيموا ولن تحصوا» [سنن ابن ماجه، برقم:٢٧٧] فقالوا: معنى الحديث: لن تقدروا على الإتيان بالاستقامة التامة الكاملة ولن تحصوها.

والحق أن من حمل الحديث على هذا المعنى يصدق عليه المثل القائل:حفظت شيئًا وغابت عنك أشياء. فإن قوله: «لن تحصوا» إن كان يرجع إلى الاستقامة المأمور بها، فكأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكلف أمرا لن يتحقق أبدًا، فإنه ينافي منافاة صريحة قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]. فكأنه يقول: استقيموا ثم يتبعه قوله: ولن تقدروا عليها، فما الهدف من وراء هذا الأمر؟ فالحمل على هذا باطل. ومعناه فيما أرى: استقيموا ما استطعتم ولاتتعمقوا فيها؛ فإنكم لن تحصوها ولايشاد الدين أحد إلا غلبه. وبهذا تبين أن الدرجة العليا من الاستقامة ليست مأمورًا بها، وما حملوا الآية عليه باطل، فإن الله تعالى لم يكلف المرء إلا ما وسعه. ولم يدع مثل هذه الشبهة تنجم في موضع إلا كشفها وأزالها.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:١٠٢]، فإنه لما نزلت هذه الآية شق ذلك عليهم، فقالوا: يا رسول الله، ومن يقوى على هذا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، فنسخت هذه الآية. فكان بعض الصحابة يعتبر هذه الآية ناسخة لما

قبلها. وصرح القاضي ثناء الله بقوله – ونعم ما قال-: إن النسخ في اصطلاح السلف يطلق على معنيين: بيان التفسير وبيان التبديل. فمعنى نسخ هذه الآية لسابقتها – على رأي بعض الصحابة- تفسيرها له، أي أن المراد بحق تقاته هو ما في وسعكم، ومكنتكم، فكل ذلك يدخل في (حَـــقَّ تُقَاتِـهِ). وبهذا ارتفعت الإشكالات كلها، وتبين أن الاستقامة التي يترتب عليها هذه الفضائل والبشارات هي ما عليه كل مؤمن، فليس مؤمن إلا و هوعلى درجة من الاستقامة.

فإن قيل: إذا كان المراد بالاستقامة في هذه الآية هو مجرد الإيمان وعدم الارتداد منه بعده، فإن من فضائل أهل الاستقامة هذه أشياء كثيرة، من أن الملائكة ينزل عليهم، و يبشرونهم، ويكشفون أحزانهم وغمومهم ويصاحبونهم. ويستوي فيه الصالح والفاسق. وإذا تمتع الفاسق أيضًا بهذه الفضائل لم يبق شيء بعدها، أي ليس عليه إلا أن ينطق بكلمة «آمنت بالله» مرةً واحدةً ثم يستقيم ويستمر عليها ثم يفعل ما يشاء، فله الرحمة والبشارة و صحبة الملائكة والأمن من الحزن والخوف؟

ويقول التهانوي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في كشف هذه الشبة: «أذكر هنا قاعدة ضابطة تكشف هذه الشبهة علاوة على كشف شبهات أخرى في كل مكان، فإن هذه الشبهة لاتخص هذه الآية؛ بل تثار في بعض الأحاديث أيضًا، منها قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة» [المعجم الكبير للطبراني: ٦٣٤٨]. وهذه القاعدة الضابطة سمعتها على لسان شيخنا مولانا محمد يعقوب رحمه الله .... فإنه قال: «ما ذكره الشارع من فضائل الأعمال كأنها خصائص هذه الأعمال، وغير خافٍ أن ظهور خواص الأشياء مشروط بارتفاع الموانع». وذلك مثلًا يذكر الطبيب خواص الأشياء، فلايحمله عاقل إلا على أن هذه الأدوية نافعة إذا لم يتناول المريض ما ينافيها ويضره، فلو أن الرجل جمع بين خميرة لسان الثور، وقدرٍ من السم؛ فإنه يلقى حتفه، وليس ذلك لبطلان خواص هذه الخميرة. وقِس عليه أن من خواص قول (لا إله إلا الله) باللسان والاستقامة عليها نزول الملائكة والبشارات شريطة ألا يأتي ما ينافيه، مثلًا قال: لا إله إلا الله، ثم لم يقل مثلًا: «ثالث ثلاثة المسيح ابن مريم». وهبْ أنه قال كلمة الكفر بعد أن نطق بكلمة الإيمان؛ فإنه أشبه بمن تناول السم مع خميرة لسان الثور.

ثم المنافي على قسمين: ما ينافي هذه الكلمة مطلقًا، مثل كلمة الكفر بالتوازي مع كلمة الإيمان،

فإنها تبطل الخاصية، فتزول خاصية قوله: «لا إله إلا الله» مطلقًا، والقسم الثاني: ما ينافي في الجملة، مثل المعاصي غير الكفر، فإنها وإن لم تُبطل خاصية كلمة الإيمان إلا أنها تُضعفها وتؤجل نفعها. وذلك أشبه بما إذا جمع إلى خميرة لسان الثور: الحمضيات والدهون والسكر الأحمر والخل والباذنجان ونحوها، فإن هذه المواد تضعف قوةَ الخميرة وتؤجل تأثيرها.

وهذا البيان يكشف شبهة أخرى ترد على ما جاء آنفًا من أن هذه الفضائل خواص الأعمال، وظهور الخواص مشروط بارتفاع الموانع. وتقول الشبهة:إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد عرض عليه أبوذر رضي الله عنه الموانع والمضار، فقال: يا رسول الله، وإن زنى وإن سرق؟ وذلك حين قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة»، فقال أبوذر: «قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى، وإن سرق». قلت: وإن زنى وإن سرق؟.... فلم يعدَّه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخلا بذلك، فمن قال: لا إله إلا الله وهو لايشرك بالله شيئًا ومات عليه دخل الجنة. فعلم منه أن ظهور هذه الخواص لايتوقف على الحذر من سوء العمل.

فالجواب عن هذه الشبهة أن الزنا والسرقة ليسا مما يبطل خاصية «لا إله إلا الله»، وكان أبو ذر يرى ذلك مبطلا لها، فنفاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما مدى منافاة هذه الأعمال لخاصية: لا إله إلا الله، فلم يدل عليه هذا الحديث، وإنما دلت الأحاديث الأخرى على أن الزنا والسرقة مما يضعف خاصية (لا إله إلا الله) ويؤخر ظهورها، أي أن صاحب هذه الأعمال يدخل الجنة بفضل خاصية الإيمان، ولكن يتأخر دخوله إليها، أو نقول: إن خاصية الإيمان قائمة ومستمرة؛ ولكن المفرد من الأدوية إذا تركب مع أدوية أخرى فإن طبيعة المركب من الأدوية تختلف عن طبيعة المفرد من الأدوية، فإذا اجتمع الإيمان مع الأعمال الصالحة، فإن طبيعة هذا المركب تختلف عن طبيعة آحاد وأفراد الأدوية، ويزداد خاصية الإيمان حينئذ قوة، فإن هذه الأجزاء تناسب «لا إله إلا الله»، وإن خلط الإيمان بالأعمال السيئة اختلفت طبيعة هذا المركب عن طبيعة غيره، أو نقول: إنما تأخر ظهور خاصية الإيمان للعوارض والموانع، فثبت أن الاستقامة والفضل الذي ورد ذكره هنا هو فضل مطلق الاستقامة على الدين في أي درجة كانت.

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

من ظلال التفسير

(١٠- سورة يونس ٤٨-٦٣)

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)
تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾

أي تهديدك بالعذاب باطل وكذب، فهلا أتيت به إن كنت صادقا؟ ومتى يتحقق هذا الوعد.

قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

أي إنزال العذاب ونحوه بيد الله تعالى، وليس بيدي وقبضتي، حتى أني لا أملك لنفسي نفعًا ولاضرا إلا ما شاء الله تعالى. فأنى كان بيدي إنزال الخير أو الشر على غيري؟ فلكل أمة أجل وموعد في علم الله تعالى، فإذا جاء أجلها عند تمام الميعاد؛ فإنه لايتأخر ثانيةً واحدةً. والحاصل أنه لا فائدة من استعجال العذاب، فالأجل الذي تقرر في علم الله تعالى لايتأخر ولايتقدم إطلاقًا. وقوله: ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [٧-الأعراف:٣٤] كناية - عند الزمخشري- عن أن العذاب إتيانه في موعده حتم لازم، ولاعبرة في الكناية عن حقيقة التقدم أو التأخر نفيًا أو إثباتًا. فتنبه له.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾

أي لو فاجأ عذاب الله تعالى المجرمين ليلًا وهم نائمون، أو نهارًا وهم في أعمالهم، فكيف يتقون؟ وحيث لايسعهم اتقاؤه فما فائدة السؤال عن موعده؟ وترجم المؤلف – أي شيخ الهند رحمه الله- قوله تعالى: ﴿نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ (١٠- يونس:٥٠) إلى الأردية بما يوافق مذاق الشاه رحمه الله، وحمله عامة المفسرين على أن المعنى: ما الذي يبعث على الفرح والمتعة في

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

إتيان العذاب حتى يستعجله المجرمون؟ أو المعنى: يا للعجب، ما أخوف ما يستعجله المجرمون؟ مع أن الأليق بالمجرم أن ترتعد فرائصه خوفًا من العقوبة القادمة، ويهلك مذعورًا منه (البحر المحيط).

أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾

أي سبب استعجالهم العذاب أنهم لايجزمون بإتيانه، فلو أيقنوا به لنفعهم بأن يحاولوا الاتقاء منه، وهم يكذبونه من ذي قبلُ؛ فإن استعجالهم نابع عن تكذيبهم وبنية الاستهزاء به، ولاينفع الإقرار به حينئذ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [٤٠-غافر: ٨٤-٨٥]

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

أي كنتم تكفرون وتشركون وتعذبون، فذوقوا مغبته دائمًا، هذا ما يقال لهم يوم القيامة.

وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

أي يسألون في نشوة من الغفلة: أحق أننا نبعث بعد الموت مرة أخرى، ونذوق العذاب الدائم؟ وهل نُحيَى من جديد بعد أن نتمزق كل ممزق، ونختلط بالأرض؟ فقل لهم: كيف تعجبون وهو أمر واقع؟ فاختلاطكم بالتراب، وتمزقكم، ليس مما يعجز الله تعالى عن أن يعيدكم مرة أخرى، ويذيقكم مغبة شروركم. وهيهات أن تفلتوا من قبضته، وتفروا منه فتعجزوه والعياذ بالله.

تنبيه:

وفي القرآن آيتان شبيهتان بهذه الآية، إحداهما في سورة سبأ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ (٣٤- سبأ:٣)، والأخرى في سورة التغابن ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٦٤-التغابن:٧)، وهما على صلة بالقيامة والمعاد، وبمناسبتهما جعل الحافظ ابن كثير هذه الآية على صلة بالمعاد.

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

أي هبْ أنه لو كان ما في الأرض من الخزائن

في يده؛ فإنه يحاول أن يفتدي به من عذاب الله تعالى.

فائدة: أي يتحسرون على ما كسبوا أولًا، ويحذرون أن يظهر ندمهم للناس؛ ولكن إلى متى يتغلبون على آثار الندم؛ حتى يظهروها في نهاية المطاف يقولون: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [٣٩-الزمر:٥٦)، و﴿يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ [٢١-الانبيآء:٩٧]

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٥

أي الحكم في العالمين لله تعالى، ولابد من إقامة العدل والإنصاف، فليس لمجرُمكم مهرب ومحيص إلى مكان، ولايفتدي نفسه بالرشوة.

فائدة: أي لايدرك معظم الناس هذه الحقائق لسوء استعدادهم وسوء فهمهم وغفلتهم، فيطلقون ما جرى على ألسنتهم، ويتفوهون بما شاؤوا.

هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٥٦

فإذا كان الإحياء والإماتة من فعله تعالى، فكيف يصعب عليه الإعادة؟

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧

هذه كلها صفات القرآن الكريم، فالقرآن عن آخره ذكر ونصح، يمنع الناس عما يهلكهم ويضرهم، وهو وصفة شفاء لأمراض القلوب، وطريق للوصول إلى الله تعالى ومرضاته. ويجعل المؤمنين به في الدنيا والآخرة أهلا للرحمة الإلهية، وقال بعض المحققين: هذه الآية تشير إلى مراتب كمال النفس البشرية، فمن تمسك بالقرآن الكريم فقد يفوز بهذه المراتب كلها:

١- تطهير الظاهر من الأفعال السيئة. ويشير إليه (موعظة).

٢- تخلية الباطن من العقائد الفاسدة والملكات الردية، ويؤخذ ذلك من قوله: (شِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُوْرِ).

٣- تزيين النفس بالعقائد الحقة والأخلاق الفاضلة، ويناسبه كلمة (هُدًى).

٤- بعد إصلاح الظاهر والباطن ينزل فيضان أنوار الرحمة الإلهية على النفس، وهو مادل عليه كلمة (رحمة). وما قاله الإمام الرازي يشير بهذه الألفاظ الأربعة إلى الشريعة والطريقة والحقيقة والنبوة والخلافة مرتبة. وليس هذا موضع تفصيله، كما أنه لايدخل مثل هذه المعاني في التفسير الخالص.

قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

الفرح قد يكون محمودًا وقد يكون مذمومًا، فالفرح بنعمة على أنه نالها بفضل الله ورحمته، فهو محمود، كما قال هنا: ﴿فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوْا﴾ (١٠-يونس:٥٨)، وأما الفرح بحطام الدنيا، والتعالي، خاصة إذا اقترن بأن ما ناله ناله بكفاءة منه، فهو في منتهى الذم. وكان قارون يقول عن ماله: ﴿اِنَّمَآ اُوْتِيْتُه عَلٰى عِلْمٍ عِنْدِيْ﴾ فقيل له: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [٢٨-القصص:٧٦-٧٧].

فائدة: أي الأصل هو فضل الله تعالى ورحمته، فليطلبه المرء دون غيره، فالمال والجاه والخدم كلها لايعدل جناح بعوضة بإزائه.

قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾

أي القرآن الذي نزل ذكرى ونصحًا وشفاءً وهدًى ورحمةً - أحق بالاستناد إليه والتمسك به، ولاتعرف الأحكام الإلهية ولايتميز الحلال من الحرام إلا به، وما أسوأ أن يخلق الله تعالى أنواع الرزق كلها لتتمتع بها، ثم ذهبت تستحل بعضها وتحرم بعضها برأيك وهواك. وأنى يحق لك أن تحلل أو تحرم؟ وهل لكم أن تقولوا: إن الله أمرنا بها؟ أم تفترون على الله تعالى؟

وأشارت الآية التالية إلى أنه ليس إلا افتراء على الله تعالى.

تنبيه:

وتفصيل ما أحل أو حرم سبق في سورتي المائدة والأنعام.

وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

أي كيف يرى هؤلاء يوم القيامة وكيف يعاملون؟ هل يؤخذون أشد الأخذ أم يفلتون من العذاب؟ هل يعذبون أم ينجون منه؟ وكيف ينظر هؤلاء؟ وليعلموا أن العذاب الأليم لن يتأخر عنهم.

فائدة: أي يمهل الله تعالى في الدنيا كثيرًا بفضله، ويعفو عن كثير من التقصيرات؛ ولكن كثير من الناس ينظرون إلى الرفق والإغماض، ويزدادون جرأةً وأمنًا بدلًا من أن يشكروا له، فكان لابد من

العقاب في نهاية الأمر. ونعم ما قيل ما معناه:

إن الله تعالى يحلم عنكم ويمهلكم، ويستر ذنوبكم؛ ولكن حين تتعدون في الذنوب، فإن حلمه نفسه يفضحكم ويأخذكم».

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

ذكر أولًا صفات القرآن الكريم، فهو نور وشفاء القلوب، ونعمة كبرى، ورحمة عظمى، ثم أشار إلى أن الناس يعرضون عن هذا النور الصافي من الهدى والبصيرة ويتخبطون في ظلمات أوهامهم وخيالاتهم، ويفترون على الله تعالى، ويكفرون بنعمه. وفي هذه الآية تنبيه على ما هم فيه وعلى مكانة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فإنه يتجلى فيه ليلًا ونهارًا الشؤون العظيمة من الوفاء الحق، ومواساة الخلق، وخاصة ما يطرأ على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الحالة المميزة عند قراءة القرآن وإقرائه، أي مناضلتك بالقرآن كله في عين الله تعالى، فكل عمل يبدأ فيه الخلق ويشتغل فيه - وإن لم يتصور اللهَ تعالى في حينه - فإن الله تعالى يراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. فليس في السماء والأرض مثقال ذرة أو أدنى منها، يغيب عن علم الله تعالى المحيط؛ بل يخضع للعلم الإلهي و يثبت في الكتاب المبين- اللوح المحفوظ- ضمن ما كان وما يكون. ولنطلق عليه في عالم التدبير «صحيفة العلم الإلهي». فإذا كان أدنى الأشياء لايخفى على الله تعالى فأنى يخفى عليه أعمال وأحوال هؤلاء المكذبين المعاندين؟ ثم كيف ينظرون فيما يقع يوم الجزاء؟ فليعلموا أن حركاتهم صغيرها وكبيرها ماثلة أمام الله تعالى، ولاينطلي عليه خيانة أو سرقة، فلابد من العقاب على كل عمل. وكما أن أعمال الأعداء ماثلة بين يديه، كذلك يعلم أهون أحوال الأولياء، وفي الآية التالية بشارة لهم:

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

وحمل ابن كثير في ضوء الأحاديث هذه الآية على أن أولياء الله تعالى لاخوف عليهم من أحوال المحشر في الآخرة، ولا يحزنون على فوات الدنيا. وجعل بعض المفسرين الآية أعم دلالةً، أي لاينزل عليهم أحداث مشوشة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ولايحزنون على فوات مطلوب، فليس المراد بالخوف خوف الحق، ولا بالحزن نفي حزن الآخرة؛ بل المراد نفي الخوف والحزن في الدنيا، مما قد يجلبه مخالفة الأعداء. فهذا مما لايصاب به المؤمنون الكاملون، فإنهم يثقون بالله تعالى دائما، ويعتقدون أن الأحداث التكوينية لاتخلو من الحكمة. واستحضار هذه الثقة وهذا الاعتقاد يحول دون أن يؤلمهم خوف أو حزن. وأرى أن المراد بقوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أنه لايقع أمر مهول على أولياء الله تعالى من هلاك أو ضرر يعتد به لا في الدنيا ولا في الآخرة. وهب أن أحدهم أصيب في الدنيا بضرر في الظاهر؛ ولكنه يؤدي بهم في المآل إلى نفع عظيم، فلايعتد ضررًا يذكر. وأما خوفهم بسبب دنيوي أو أخروي في حين من الأحيان؛ فإنه لاينافي الآية على هذا التوجيه؛لأنه إنما أخبر بأنهم لايصيبهم أمر مخيف، ولم يقل: لايصابون بخوف إطلاقًا، ولعل هذه هي النكتة في إيثار التعبير بـ(لاخوف عليهم) بدلًا من (لايخافون) المناسب لقوله: (لايحزنون). وأما (لايحزنون) فأرى أنه يخص المستقبل، أي لايحزنون عند الموت ولا بعد الموت، كما قال: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [٤١-فصلت:٣٠) وقال: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [٢١-الانبياء:١٠٣]. والله تعالى أعلم بمراده.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

هنا ثناء على أولياء الله تعالى، أي المؤمن التقي ولي الله تعالى، وتبين في غير موضع سابق أن الإيمان والتقوى لهما مراتب كثيرة، فيحظى المرء بنصيب من الولاية على قدر ما فيه من الإيمان والتقوى. فكما أن العشرة والعشرين، والمئة والألف والألفين ومئة ألف ومئتي ألف كلها مال، ولكن لايطلق العرف العام الثري على من لايملك إلا عشر وعشرين من الروبيات، ما لم يملك قدرا معتدا به من المال، فقِس عليه أن الإيمان والتقوى – في أي درجة كانتا- فهو شعبة من الولاية، فالمؤمنون كلهم أولياء من هذه الناحية؛ ولكن لايطلق الولي في العرف إلا على من يحمل قدرا معتدا به ومميزا من الإيمان والتقوى. وذكرت الأحاديث بعض العلامات والآثار لهذه الولاية، مثلًا: أن يُذكر الله تعالى إذا رؤوا أو يحبهم خلق الله تعالى حبًا خالصًا. وعرَّف أهل المعرفة الولاية حسب مذاقهم تعريفات مختلفة. وليس هذا موضع تفصيلها.

أثر القرآن الكريم في تطوّر مبادئ البحث العلمي

بقلم: الدكتور/ بكر مصباح تنيرة

منذ بدء الثورة العلمية في أوائل العصر الحديث في أوروبا، ساهم في وضع أصولها التجريبية فرنسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦م)، وتبعه غاليلو (١٥٦٤-١٦٤٢م) الذي استخدم التجربة لأول مرة كي يثبت كروية الأرض، واعتبر اكتشافه هذا ثورة عقلية ومنهاجية ضد الفكر الديني المسيحي آنذاك والتقاليد الكنسية التي كانت سائدة، ثم جاء إسحاق نيوتن (١٦٤٣-١٧٢٧م) ليكتشف قانون الجاذبية الأرضية، وتوالى بعد ذلك ظهور الاكتشافات في مختلف مجالات العلوم من فلك وطب وطبيعة ورياضيات وغيرها.

وقد وضع العلماء منذ ذلك التأريخ العديد من النظريات لتفسير الظواهر التي أدركها الإنسان على الأرض وفي الفضاء الكوني عمومًا. وما زال البحث العلمي يتطور باستمرار واطراد، سواء في مناهج التفكير أو وسائل وأدوات البحث عن الحقيقة، وفي كل يوم إن لم يكن في كل ساعة يتوصل الإنسان إلى اكتشاف جديد، أو اختراع مبتكر، أو يضع العلماء نظرية مستحدثة قد تنفي ما سبق إثباته من قبل أوتؤكده، أو يدخل عليها تعديلات.

وفي الواقع فإن الإنسان ما زال يكتشف ما هو موجود، ويحاول أن يتعرف على خبايا الوجود، وأسرار المخلوقات على كثرتها وتباينها من حيث النشأة والتطور والتكوين والسلوك، ويسعى العلماء دائمًا إلى وضع القوانين العلمية التي تصوغ العلاقات وتنظمها بين هذه الظواهر المتعددة والمعقدة والمتفاعلة في آن واحد.

وقد وجه الله الدعوة للإنسان، كي يبحث ويتعلم، فقال تعالى في أول سورة أنزلت من القرآن الكريم:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:١-٥].

هذه الدعوة المفتوحة والصريحة للعلم التي

وجههـا الله إلى عبـاده، أهملهـا المـسلمون قرونًـا عديدة، فتخلفوا عن ركب التقدم والحضارة. وأخذ بها الأوروبيون نصًا وروحًا وتطبيقًا منذ أوائل عصر النهضة عندهم، فبلغوا ما هم عليه في عصرنا من تقدم علمي وتقني.

فإذا كان المسلمون، قد نسوا حظا مما ذكروا به فتخلفوا وسبقتهم الأمم، فذلك لأنهم أساءوا فهم تراثهم العلمي، وأغلقوا عقولهم عن فهم كل جديد، وتمسكوا بالتقليد، وأحجموا عن اقتحام الجديد المبتكر، وهم يقرؤون قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٥٢].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤].

﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت:٢٠].

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥].

وعلى العكس مما هو عليه المسلمون في الحاضر، فقد بلغ المسلمون الأول أوج الحضارة في عصورهم الزاهرة، عندما حفلوا بالعلم وفروع المعرفة، وانكبوا بجد واجتهاد يدفعهم الإيمان والإخلاص، والفهم الصحيح لآيات القرآن الكريم، للحث في كل شأن من شؤون الحياة، وكل ظاهرة من ظواهر الكون، فصنفوا المؤلفات، وجددوا مناهج البحث العلمي النظرية منها والتجريبية، وطوروا النظريات القديمة، مثلما اكتشفوا قوانين ونظريات جديدة. ومن يطلع على ما أورده ابن النديم في «الفهرست» يدرك ما وصل إليه المسلمون في القرن الرابع الهجري. وذلك عندما كان القرآن هو الجامعة التي يتتلمذ فيها الصغير والكبير، ويتخرج منها العلماء والفقهاء واللغويون والأدباء أمثال: مالك بن أنس، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وجابر بن حيان، والكندي، وابن سينا، والجاحظ، وابن خلدون، وغيرهم. فقد أدركوا بعمق إيمانهم قوله تعالى:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤].

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩].

وقد نبههم الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام إلى جواهر القرآن ومفاتيح علومه فقال:

«خيركم من تعلم القرآن وعلمه» رواه البخاري ومسلم وأبوداود.

وبقي المسلمون بخير وقوة وسؤدد، يوم أن تمسكوا بالقرآن، وحفظوه صغارًا وكبارًا، واهتدوا بهديه في القول والعمل معًا، واستمدوا من آياته العلم الصحيح والمنهج القويم، فسادوا الأمم، وفتحوا العقول، وارتقوا في مدارج الحضارة، حتى غدت مدنهم ومساجدهم، منارات للعلم، وقبلة لطلابه، وكانت علومهم ومؤلفاتهم، تدرس في جامعات أوروبا في روما وباريس ولندن. وصدق فيهم قول الشاعر:

أقلامهم سايرت أسياف صولتهم

للسيف فتح وللأقلام عرفان

* * *

العلم والإنسان في القرآن:

العلم هو أول ما أنعم به الله على الإنسان بعد الحياة، وميزه به عن سائر مخلوقاته بما وهبه من قلب واع، وعقل مفكر، ولسان ناطق، وأذن تسمع، فقال تعالى:

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره:

«هذا مقام ذكره الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة، بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم».

لذلك تميزت الدعوة الإسلامية عن غيرها من الدعوات السماوية، بأن جعلت العلم هو الطريق القويم إلى الدين الصحيح، والتوحيد الخالص، والهداية الربانية، ولم تكن الخوارق والمعجزات من وسائلها للإيمان بالله وتوحيده وعبادته والعمل

بشريعته؛ بل خاطبت العقل بالبرهان، ودعته إلى التفكير والتأمل والاهتداء إلى الصراط المستقيم، ألا وهو الإسلام الحنيف، فقال جل شأنه:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١].

يفصل الإمام محمد عبده ذلك في «رسالة التوحيد» فيقول:

«جاء القرآن فانتهج الدين منهجًا لم يقم عليه ما سبقه من الكتب المقدسة، منهجًا يمكن لأهل الزمن الذي أنزل فيه ولمن يأتي بعدهم أن يقوموا عليه، فترك الاستدلال على نبوة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة وحصر الدليل في حال النبي مع نزول الكتاب عليه في شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ولو في مثل أقصر سورة منه، وتناول من مقام الألوهية ما أذن الله لنا أو ما أوجب علينا أن نعلم، لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته، ولكنه ادعى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة، وخاطب العقل واستنهض الفكر وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإحكام والإتقان على أنظار العقول وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه».

ولم يدع الله الإنسان عند هذا الحد من العلم؛ بل بين له المبادئ التي يقوم عليها البحث العلمي، وقدم له الوسائل والأدوات الحسية والمعنوية، كل ذلك كي يكتشف بنفسه الحقائق.

مبادئ البحث العلمي في القرآن:

من المعروف عند العلماء، أن للبحث العلمي مبادئ لابد أن تتوفر كي يؤتي البحث ثماره المرجوة منه، وأول هذه المبادئ التي لا يستقيم البحث العلمي بدونها، حرية التفكير، وهي أعم وأشمل من حرية البحث، لابد من أن تتوفر دون أدنى قيد حتى ينطلق الإنسان بما وهبه الله من ملكات إلى رحاب العلم. وحرية التفكير تنبع في الأصل من مصدرين أساسيين، أحدهما تكوين العقل الإنساني نفسه، والذي تنتشر أدواته المادية في الجسد، وتشمل أجزاء المخ والحواس المتصلة به وبوظائفه. وقد شاء الله بواسع علمه ودقة صنعه أن يكون هذا التكوين

متحررًا من أي قيد يحد من حرية تفكيره فيما يشاء. والمصدر الثاني الضوابط الخارجية التي تؤثر على طريقة التفكير عند الإنسان، وقد تكون هذه الضوابط عقائد دينية أو دنيوية، أو قوانين ونظم اجتماعية، وما يتولد عنها من مفاهيم وقيم تؤثر بالضرورة على موضوعات الفكر ومنطق التكفير، ومن ثم مناهج البحث وتعرضها للأشياء.

وهذه أيضا اقتضت حكمة الله ورحمته أن يحرر الإنسان منها، فدعا سبحانه وتعالى العباد في كثير من آيات القرآن الكريم إلى التفكير العلمي بحرية، فيما أبدع جل شأنه في هذا الكون من كائنات حية وسماوات وكواكب ونجوم وبحار وأنهار وجبال وليل ونهار. فقال تعالى:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:١٧-٢٢].

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧٣].

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١].

ثم يحدد الله عز وجل الظواهر التي يجب أن يوجه إليها الإنسان اهتمامه وتفكيره. ويعتبر تحديد موضوعات البحث مبدأ له أهميته وضرورته، فقال تعالى:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

وقوله تعالى:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨].

ويفصل الله خصائص الظواهر كي تكون عونًا للإنسان في اكتشافها والاستفادة منها، فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ

بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور:٤٣-٤٥].

وقد نهى الله وحذر عباده من أن يخوضوا فيما ليس لهم به علم، وهذا مبدأ أساسي لا يكمل البحث العلمي إلا به، حيث لا يجوز أن يقوم البحث على الرأي أو الظن أو التخمين دون أن يسند الشيء إلى برهان قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان:٦].

ولا تستقيم الحياة البشرية وتتطور إلا بالاجتهاد لمجاراة سنن التقدم ومتابعة التجديد بمعناه الواسع والارتقاء دائمًا إلى الأفضل، كما نهى سبحانه عن التقليد الأعمى وتعطيل النعم التي منَّ بها على الإنسان من عقل وحواس وجوارح فقال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢].

هكذا يقرن الله في محكم آياته المجاهدة في سبيله بالاجتهاد في دينه، وبذلك جمع للإنسان العلم والعمل.

ثم ينهى الله عن التقليد والجمود، ويحذر من عواقبهما، فيقول تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠].

ويبين سبحانه العاقبة السيئة التي تنتظر الغافلين الذين لا يحسنون استخدام نعم الله عليهم، وما زودهم به من أعضاء تمكنهم من التفكير والتأمل والبحث فيقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا

يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

هكذا يتضح من هذه الآيات البينات، أن الله عز وجل بعد أن أنعم على الإنسان بالعلم فصل له مناهج البحث وبين وسائله وأدواته كي يعرف الحق ويكتشف الحقيقة في هذه الدنيا وفي الدار الآخرة. ذلك أن غاية العلم في الإسلام الهداية إلى الطريق المستقيم والارتقاء بالإنسان إلى أعلى مراتب الحياة المادية والروحية التي تمكنه من تسخير ما خلق الله في هذا الكون من نبات وحيوان وجماد ليؤدي رسالته على هذه الأرض، يقول تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[لقمان:٢٠].

ونعود فنقول: لما كان القرآن هو جامعة هذه الأمة، وكان العلماء أمناء هذه الجامعة، كانت الأمة الإسلامية هي رائدة الحضارة الإنسانية ومعلمة الأمم والأجيال عبر العصور، والتراث الإسلامي الخالد يشهد بذلك. ورب قائل يقول: إن العلوم تطورت، وإن التقدم التقني استحدث مالا عين رأت ولا أذن سمعت، وهذا صحيح؛ ولكن يبقى لكل بناء أساس يجب أن يقوم عليه، وأساس ذلك كله القرآن الكريم الذي كان نزوله على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتبليغه للناس. وإيمان العرب به، واجتهادهم في سبيل القيام بهذه الأمانة هو العامل الأساسي الذي فتح العقل وأزال الجمود. وإذا أراد المسلمون أن يجددوا بناء عقيدتهم وحياتهم وحضارتهم، فعليهم بالأساس المتين وهو القرآن الكريم، الذي قال فيه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

«تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي» رواه الحاكم.

«إنها ستكون فتن قلت: فما المخرج منها يارسول الله؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء» رواه الترمذي وغيره عن علي رضي الله عنه.

من الإعجاز البياني في القرآن الكريم

(٦- المائدة: ٤٤-٤٩)

بقلم: **رئيس التحرير**

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (المائدة:٤٤).

فإن قيل: كل نبي لا بدّ وأن يكون مسلمًا، فما الفائدة في قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الوجه الأول: المراد بقوله: ﴿أَسْلَمُوا۟﴾ أي انقادوا لحكم التوراة، فإن من الأنبياء من لم تكن شريعته شريعة التوراة، والذين كانوا منقادين لحكم التوراة هم الذين كانوا من مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام. ذكره الرازي[١].

وحكاه ابن الجوزي عن الأكثرين وقال: فعلى هذا القول في معنى «أسلموا» أربعة أقوال.

أحدها: أسلموا لحكم الله، ورضوا بقضائه.

والثاني: انقادوا لحكم الله، فلم يكتموه كما كتم هؤلاء.

والثالث: أسلموا أنفسهم إلى الله عز وجل.

والرابع: أسلموا لما في التوراة ودانوا بها؛ لأنه قد كان فيهم من لم يعمل بكل ما فيها كعيسى عليه السلام[٢]. وقريب منه ماذكره ابن عاشور حيث قال: أما المراد بالنبيين فيجوز أنّهم أنبياء بني إسرائيل، موسى والأنبياءُ الّذين جاؤوا من بعده. فالمراد بالّذين أسلموا الّذين كان شرعهم الخاصّ بهم كشرع الإسلام سواء؛ لأنّهم كانوا مخصوصين بأحكام غير أحكام عموم أمّتهم؛ بل هي مماثلة للإسلام، وهي الحنيفية الحقّ؛ إذ لا شكّ أنّ الأنبياء كانوا على أكمل حال من العبادة والمعاملة، ألا ترى أنّ الخمر ما كانت محرّمة في شريعة قبل الإسلام ومع ذلك ما شربها الأنبياء قط؛ بل حرّمتها التّوراة على كاهن بني إسرائيل فما ظنّك بالنّبي؟ ولعلّ هذا هو المراد من وصيّة

إبراهيم عليه الصلاة والسلام لبنيه بقوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (البقرة:١٣٢) كما تقدّم هنالك. وقد قال يوسف - عليه السّلام - في دعائه: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (يوسف:١٠١). والمقصود من الوصف بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ على هذا الوجه الإشارة إلى شرف الإسلام وفضله إذ كان دين الأنبياء[٣].

الوجه الثاني: قال الحسن والزهري وعكرمة وقتادة والسدي: يحتمل أن يكون المراد بالنبيين الذين أسلموا هو محمد عليه الصلاة والسلام؛ وذلك لأنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حكم على اليهوديين بالرجم، وكان هذا حكم التوراة، وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيمًا له كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ (النحل:١٢٠) وقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ (النساء:٤٥) وذلك لأنه كان قد اجتمع فيه من خصال الخيرماكان حاصلًا لأكثر الأنبياء. أي انقادوا لحكم التوراة، فإن من الأنبياء من لم تكن شريعته شريعة التوراة ، والذين كانوا منقادين لحكم التوراة هم الذين كانوا من مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام. ذكره الطبري، والرازي، وابن الجوزي وابن عاشور، و الشوكاني[٤].

الوجه الثالث: قال ابن الأنباري: هذا رد على اليهود والنصارى؛ لأن بعضهم كانوا يقولون: الأنبياء كلهم يهود أو نصارى، فقال تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ يعني الأنبياء ما كانوا موصوفين باليهودية والنصرانية؛ بل كانوا مسلمين لله منقادين لتكاليفه. ذكره الرازي[٥].

الوجه الرابع: المراد بقوله ﴿ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ يعني الذين كان مقصودهم من الحكم بالتوراة الإيمان و الإسلام وإظهار أحكام الله تعالى والانقياد لتكاليفه، والغرض من التنبيه على قبح طريقة هؤلاء اليهود المتأخرين، فإن غرضهم من ادعاء الحكم بالتوراة أخذ الرشوة واستتباع العوام. ذكره الرازي، والشوكاني[٦].

الوجه الخامس: ﴿ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ صفة أجريت على النبيين على سبيل المدح، كالصفات الجارية على القديم سبحانه لا للتفصلة والتوضيح، وأريد بإجرائها التعريض باليهود، وأنهم بعداء من ملة الإسلام التي هي دين الأنبياء كلهم في القديم والحديث، وأنّ اليهودية بمعزل عنها. ذكره الزمخشري، والبيضاوي، والقرطبي[٧]. وعن هذا المعنى عبر أبوالسعود فقال: صفة أجريت على

النبيين على سبيل المدح دون التخصيص والتوضيح، لكن لا للقصد إلى مدحهم بذلك حقيقة، فإن النبوة أعظم من الإسلام قطعًا، فيكون وصفُهم به بعد وصفِهم بها تنزلًا من الأعلى إلى الأدنى؛ بل لتنويه شأن الصفة فإن إبرازَ وصفٍ في معرِض مدح العظماء مُنبئ عن عِظَم قدرْ الوصْفِ لا محالة كما في وصف الأنبياءِ بالصلاحِ ووصفِ الملائكة بالإيمان عليهم السلام، ولذلك قيل: أوصافُ الأشراف أشرافُ الأوصاف، وفيه رفع لشأن المسلمين وتعريضٌ باليهود وأنهم بمعزِل عن الإسلام، والاقتداءُ بدين الأنبياء عليهم السلام لا سيما مع ملاحظة ما وُصفوا به في قوله تعالى[٨]. وعبر الآلوسي عنه بقوله: صفة أجريت على النبيين - كما قيل- على سبيل المدح، والظاهر لهم، ونظر فيه ابن المنير «بأن المدح إنما يكون غالبًا بالصفات الخاصة التي يتميز بها الممدوح عمن دونه، والإسلام أمر عام يتناول أمم الأنبياء ومتبعيهم كما يتناولهم، ألا ترى أنه لايحسن في مدح النبي ﷺ أن يقتصر على كونه رجلًا مسلمًا؛ فإن أقل متبعيه كذلك، ثم قال: فالوجه - والله تعالى أعلم- أن الصفة قد تذكر لتعظم في نفسها، ولينوه بها إذا وصف بها عظيم القدر، كما تذكر تنويهًا بقدر موصوفها،... وعلى هذا الأسلوب جرى وصف الأنبياء عليهم السلام بالصلاح في غير ما آية تنويهًا بمقدار الصلاح إذ جعل صفة للأنبياء عليهم السلام، وبعثا لآحاد الناس على الدأب في تحصيل صفته، وكذلك قيل في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (غافر:٧)، فأخبر سبحانه عن الملائكة المقربين بالإيمان تعظيمًا لقدره، وبعثا للبشر على الدخول فيه ليساووا الملائكة المقربين في هذه الصفة، وإلا فمن المعلوم أن الملائكة مؤمنون ليس إلا، كيف لا؟ وهم - عند ربهم- كما في الخبر، ثم قال جل وعلا: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني من البشر لثبوت حق الأخوة في الإيمان بين القبيلتين، فلذلك - والله تعالى أعلم- جرى وصف الأنبياء في هذه الآية بالإسلام تنويهًا به، ولقد أحسن القائل: أوصاف الأشراف أشراف الأوصاف، وحسان الناظم في مدحه عليه الصلاة والسلام بقوله:

ما إن مدحت محمدا بمقالتي

لكن مدحت مقالتي بمحمد

والإسلام - وإن كان من أشرف الأوصاف، إذ حاصله معرفة الله تعالى بما يجب له و يستحيل عليه ويجوز في حقِّه - إلا أن النبوة أشرف وأجل لاشتمالها على عموم الإسلام مع خواص المواهب التي لا تسعها العبارة؛ فلو لم نذهب إلى الفائدة المذكورة في ذكر الإسلام بعد النبوة (في سياق المدح) لخرجنا عن قانون البلاغة المألوف في الكتاب العزيز وفي كلام العرب الفصيح، وهو الترقي من الأدنى إلى الأعلى لا النزول على العكس، ألا ترى أن أبا الطيب كيف تزحزح عن هذا المهيع في قوله:

شمس ضحاها هلال ليلتها

در مقاصيرها زبرجدها

فنزل عن الشمس إلى الهلال، وعن الدر إلى الزبرجد (في سياق المدح) فمضغت الألسن عرض بلاغته ومزقت أديم صنعته فعلينا أن نتدبر الآيات المعجزات حتى يتعلق فهمنا بأهداب علوها في البلاغة المعهودة لها، والله تعالى الموفق للصواب» انتهى. وفي «المفتاح» و «التلخيص» إشارة إلى ما ذكره، وإيراد الطيبي عليه ما أورده غير طيب، نعم قد يقال: إن القائل بكونها مادحة لمن جرت عليه نفسه قد يدعي أن ذلك مما لا بأس به إذا قصد مع المدح فوائد أخر كالتنويه بعلو مرتبة المسلمين هنا والتعريض باليهود بأنهم بمعزل عن الإسلام، على أنه قد ورد في الفصيح؛ بل في الأفصح - ذكر غير الأبلغ بعد الأبلغ من الصفات، ومن ذلك ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] حيث كان متضمنا نكتة، وقال عصام الملة: إن الإسلام للنبي كمال المدح؛ لأن الانقياد من المقتدي للخلائق التي لا تحصى وصف لا وصف فوقه، ويمكن أن يكون الوصف به هنا إشعارًا بمنشأ الحكم ليحافظ عليه الأمة ولا يخرم، ولا يتوهم أن الحكم للنبوة، فغير النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ خارج عن هذا المسلك انتهى، وفيه تأمل؛ إذ الترقي من الأدنى إلى الأعلى لم يظهر بعد، ونهاية الأمر الرجوع إلى نحو ما تقدم فافهم[٩].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (المائدة:٤٦).

في الآية بدهيات:

الأولى:

فإن قلت: لم كرر قوله: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ

يَدَيْهِ﴾؟

فالجواب من وجوه:

الوجه الأول: ليس فيه تكرار؛ لأن في الأول: أن المسيح يصدق التوراة، وفي الثاني: الإنجيل يصدق التوراة. ذكره الرازي، وابن الجوزي[١٠].

وإليه ذهب ابن عاشور فقال: و ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال أيضًا من الإنجيل فلا تكرير بينها وبين قوله ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا﴾ لاختلاف صاحب الحال ولاختلاف كيفية التّصديق؛ فتصديق عيسى التّوراةَ أمره بإحياء أحكامها، وهو تصديق حقيقي؛ وتصديق الإنجيل التّوراة اشتماله على ما وافق أحكامَها فهو تصديق مجازي. وهذا التّصديق لا ينافي أنّه نَسخَ بعض أحكام التّوراة كما حكى الله عنه ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، لأنّ الفعل المثبَت لا عموم له[١١].

الوجه الثاني: قال أبوحيان: قال علي بن أبي طالب: و (مُصَدِّقًا) معطوف على (مُصَدِّقًا) الأول انتهى. ويكون إذ ذاك حالًا من عيسى، كرره على سبيل التوكيد، وهذا فيه بعد من جهة التركيب واتساق المعاني، وتكلفه أن يكون (وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ) جملة حالية معطوفة على «مُصَدِّقًا». و ذكره الآلوسي[١٢].

الثانية:

فإن قلت: لم ذكر الهدى مرتين؟

أجاب عنه أبوالسعود فقال: وتكريرُ (مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ) لزيادة التقرير[١٣].

الثالثة:

فإن قلت: الهدى والنور واحد فما فائدة التكرار؟

فالجواب من وجوه:

الأول: قال جماعة: الهدى والنور سواء، وكرر للتأكيد. ذكره أبوحيان[١٤].

الثاني: وقال قوم: ليسا سواء، فالهدى محمول على بيان الأحكام، والنور والبيان للتوحيد والنبوة والمعاد. ذكره أبوحيان[١٥].

الثالث: قال الزمخشري: يهدي للعدل والحق، ونور يبين ما استبهم من الأحكام. ذكره أبوحيان[١٦].

الرابع: قال ابن عطية: الهدى: الإرشاد في المعتقد والشرائع، والنور: ما يستضاء به من أوامرها ونواهيها.ذكره أبوحيان[١٧].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا

عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [المائدة:٤٨].

فإن قلت: من المعلوم بداهة أن الرسول لايحكم إلا بما أنزل الله ولايتبع أهواءهم، فما فائدة هذا الأمر والنهي؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الأول: الرسول لا يجوز عليه أن يحكم بغير شرع الله، فالمقصود من هذا النّهي: إمَّا إعلان ذلك ليعلمه النّاس ويبأس الطّامعون أن يحكم لهم بما يشتهون، فخطاب النّبي ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [المائدة:٤٩] مراد به أن يتقرّر ذلك في علم النّاس، مثل قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥]. ذكره ابن عاشور(١٨).

الثاني: وإمَّا تبيين الله لرسوله وجهَ ترجيح أحد الدليلين عند تعارض الأدلّة بأن لا تكون أهواء الخصوم طرُقا للترجيح، وذلك أنّ الرسول - عليه الصلاة والسلام- لشدّة رغبته في هُدى النّاس قد يتوقّف في فصل هذا التّحكيم؛ لأنّهم وعَدوا أنّه إن حكم عليهم بما تقرّر من عوائدهم يؤمنون به. فقد يقال: إنّهم لمّا تراضَوا عليه لِم لايُحملون عليه مع ظهور فائدة ذلك وهو دخولهم في الإسلام، فبيّن الله له أنّ أمور الشّريعة لا تهاون بها، وأنّ مصلحةَ احترام الشّريعة بين أهلها أرجحُ من مصلحة دخول فريق في الإسلام؛ لأنّ الإسلام لا يليق به أن يكون ضعيفًا لمريديه، قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧]، ذكره ابن عاشور(١٩).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٩].

فإن قلت: أعيد ذكر الأمر بالحكم بعد ذكره في الآية الأولى، فما فائدته؟

قلنا: الجواب من وجهين:

الأول: للتأكيد. ذكره الرازي، وابن الجوزي(٢٠).

وإلى التاكيد ذهب أبوحيان فقال: يجوز أن يكون قوله: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم﴾ معطوفا عطفَ جملة على جملة، بأن يجعل معطوفا على جملة ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [المائدة:٤٨]، فيكون رجوعا إلى ذلك الأمر

لتأكيده، وليبنى عليه قوله: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ كما بُني على نظيره قوله: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائـــدة:٤٨] و تكُـــون (أنْ) تفـــسيرية. و(أنْ) التفسيريّة تفيد تقوية ارتباط التّفسير بالمفسَّر؛ لأنّها يمكن الاستغناء عنها، لصحّة أن تقول: أرسلتُ إليه افْعَل كذا، كما تقول: أرسلت إليه أنْ افعَلْ كذا. فلمّا ذكر الله تعالى أنّه أنزل الكتاب إلى رسوله رتّب عليه الأمـر بـالحكم بـما أنـزل بـه بواسـطة الفـاء فقـال: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم﴾ [المائدة:٤٨]، فدلّ على أنّ الحكم بما فيه هو من آثار تنزيله. وعطَف عليه ما يدلّ على أنّ الكتاب يأمر بالحكم بما فيه بما دلّت عليه (أنْ) التفسيرية في قوله: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنـزَلَ ٱللَّهُ﴾، فتأكَّد الغرض بذِكْره مرّتين مع تفنّن الأسلوب وبداعته، فصار التّقدير: وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ أنْ احكم بينهم بما أنزل الله فاحكم بينهم به. وممّا حسَّن عطفَ التّفسير هنا طولُ الكلام الفاصِل بين الفعل المفسَّر وبين تفسيره[٢١].

الثاني: وليس هذه الآية تكرارًا لما تقدم؛ لأنهما حكمان أمر بهما جميعًا، لأنهم احتكموا إليه في زنا المحصن، ثم احتكموا في قتيل كان فيهم. ذكره الرازي، وأبوحيان، وابن الجوزي[٢٢].

* * *

الهوامش:

(١) الرازي ٣٦٥/١٢.

(٢) ابن الجوزي في تفسير الآية.

(٣) ابن عاشور في تفسير الآية .

(٤) الرازي ٣٦٥/١٢؛ الطبري ١٦١/١٦؛ ابن الجوزي في زاد المسير الأية ؛ ابن عاشور في تفسير الآية؛ الشوكاني تفسير الآية.

(٥) الرازي ٣٦٥/١٢.

(٦) الرازي ٣٦٥/١٢؛ والشوكاني تفسير الآية.

(٧) الزمخشري تفسير الآية؛ البيضاوي ٣٢٨/٢؛ القرطبي تفسير الآية.

(٨) أبو السعود ٤٤/٣.

(٩) الآلوسي٤٢/٦وما بعد.

(١٠) الرازي ٣٦٩/١٢؛ ابن الجوزي في تفسير الآية.

(١١) ابن عاشور في تفسير الآية.

(١٢) أبو حيان في تفسيرالآية؛ الآلوسي١٢٥/٦.

(١٣) أبو السعود ٤٨/٣.

(١٤) أبوحيان في تفسير الآية.

(١٥) أبوحيان في تفسير الآية.

(١٦) أبوحيان في تفسير الآية.

(١٧) أبوحيان في تفسير الآية.

(١٨) ابن عاشور في تفسير الآية.

(١٩) ابن عاشور في تفسير الآية.

(٢٠) الرازي ٣٧٣/١٢؛ ابن الجوزي في تفسير الآية.

(٢١) أبوحيان في تفسير الآية.

(٢٢) الرازي ٣٧٣/١٢؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ ابن الجوزي في تفسير الآية.

رعاية المصلحة في الشريعة الإسلامية

بقلم: الدكتور عبد الكريم زيدان

١- تمهيد

من خصائص الشريعة الإسلامية أنها عامة في المكان والزمان، بمعنى أنها عامة لجميع البشر في كل مكان وزمان، وبهذا نطق القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[١] وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[٢] وعموم الشريعة الإسلامية غير مقصور على عصر النبي ﷺ؛ بل هو يمتد إلى يوم القيامة؛ لأن الرسول ﷺ خاتم النبيين والمرسلين. قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ...﴾[٣] وبختم الرسالة والنبوة انقطع الوحي، وبانقطاع الوحي امتنع نسخ الشريعة؛ لأن الشريعة الإسلامية وهي وحي الله لا ينسخه إلا وحي إلهي، وحيث لا وحي بعد رسول الله فلا يتصور نسخها ولا تبديلها...

وإذا كان ما قدمت يعتبر من الأمور الواضحات؛ فإن من لوازم ذلك أن تكون الشريعة الإسلامية ذات قابلية للبقاء والعموم، محققة مصالح الناس في كل زمان ومكان؛ إذ لا يجوز في العقل أن تكون الشريعة كما وصفنا وهي عاجزة عن مصالح العباد...

٢- ابتناء الشريعة على رعاية مصالح العباد

يقول الفقيه الشجاع العز بن عبد السلام: «إن الشريعة كلها مصالح إما درء مفاسد أو جلب مصالح[٤]، ويقول الإمام الكبير ناصر السنة النبوية شيخ الإسلام ابن تيمية: ومعلوم أن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان»[٥].

ويقول أيضًا: «فإن الله تعالى بعث رسوله ﷺ بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها[٦].

ويقـول الفقيـه المحقـق ابـن قـيم الجوزيـة: «إن الـشريعة مبناهـا وأساسـها عـلى الحكـم، ومـصالح العباد في المعاش والمعاد»(٧).

ويقــول الإمــام الــشاطبي: «والــشريعة مــا وضــعت إلا لتحقيــق مــصالح العبــاد في العاجــل والآجل ودرء المفاسد عنهم(٨).

فهـذه النقـول عـن هـؤلاء الأئمـة الأعـلام، صريحـة في أن الـشريعة بنيـت عـلى أسـاس رعايـة مصالح العباد في الدنيا والآخرة، وسواء أكانت هذه المـصالح جلـب منـافع، أم درء مفاسـد؛ لأن درء المفاسد وجه من وجوه المصلحة.

٣- أدلة ابتناء الشريعة على رعاية المصالح

ومـا ذهـب إليـه هـؤلاء العلـماء هـو الحـق عـين الحق، وعليه يدل استقراء النصوص ونهج المشرع في تشريعه الأحكام، وتشهد له أصول الشريعة المقطوع بـصحتها، ونـذكر مـن ذلـك عـلى سـبيل التمثيـل لا الحصر ما يلي:

(أ) جـاء في القـرآن الكـريم في تعليـل رسـالة محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾(٩) ومن الواضح أن الرحمة هذه تتضمن رعاية مصالح العباد ودرء المفاسد عنهم.

(ب) تعليـل الأحكـام بجلـب المـصلحة ودرء المفسدة إعلام للمكلفين بأن تحصيل المصالح هو مقصود الشارع الحكيم، وأن الأحكام ما شرعت إلا لهذا الغرض فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾(١٠) فتشريع القصاص مصلحة مؤكدة للناس؛ لأن فيه زجرًا وردعًا لمن تسول له نفسه الاعتداء على أرواح الناس، فتحفظ حياتهم بذلك وقول الله تعالى في تعليل النهي عن الخمر والميسر: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾(١١) فالنهي عن الخمر والميسر يحقق مصلحة مؤكدة هي دفع ما يريد الشيطان إيقاعه بين المسلمين من عداوة وبغضاء وصد عن ذكر الله وعن الصلاة...

(ج) مـن أصـول الـشريعة المقطـوع بـصحتها رفع الحرج عن الناس وإرادة اليسر بهم ودفع العسر عنهم، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾(١٢). وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾(١٣) وقال عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ

مِـنْ حَـرَجٍ﴾[١٤] ولا شك أن رفع الحرج والعسر وإرادة اليسر بالعباد والتخفيف عنهم كل ذلك من مظاهر رعاية المصلحة في التشريع الإسلامي.

(د) تـشريع الـرخص بالنـسبة لـذوي الأعـذار كـالمرضى والمسافرين والمـضطرين والمكـرهين وجـه بارز من وجوه رعاية المصلحة وعدم إرهاق الناس، فالمريض يفطر في رمضان، وكذا المسافر، والمكره على كلمة الكفر لا يكفر بقولها، والمضطر يباح له تنـاول المحرمـات مـن مطعـوم أو مـشروب؛ لأن الضرورات تبيح المحظورات...

(هـ) وتشريع الأحكام في عصر النبي ﷺ أخذ بنهج التدرج فلم تأت أحكامه دفعةً واحدةً، وإنما جاءت متدرجة من حيث زمان تشريعها، ومن حيث أنواعها رعاية لمصالح العباد ورفع الشقة عنهم، وترويضهم على تقبل الأحكام شيئًا فشيئًا.

٤- بين الشريعة والقوانين الوضعية

وإذا كانـت الـشريعة الإسـلامية قـد راعـت بجميـع أحكامهـا مـصالح العبـاد، وإن القـوانين الوضعية من أسس وضعها مراعاة مصالح الناس، فإن بين الاثنين مع ذلك فرقين جوهريين لا يجوز إغفالهما.

الأول:

أن القـوانين الوضـعية لا تهـتم إلا بمـصالح النـاس في الـدنيا ولا يمتـد نظرهـا إلى مـا وراء هـذه الحياة. أما الشرعية الإسلامية فهي تنظر إلى مصالح العباد في الآخرة – وهي الظفر بنعيم الجنة، والنجاة مـن عـذاب النـار – هـي الأهـم والأكثـر رعايـة في الـشريعة الإسـلامية؛ لأنهـا هـي الباقيـة، أمـا مـصالح الدنيا فهي الفانية وشتان بين ما يفنى وما يبقى(*).

الثاني:

أن القـوانين الوضـعية قـاصرة عـن تحقيـق المصالح على الوجه الأكمل المطلوب؛ لأن واضعها بـشر والبـشر لا ينفـك عـن الجهـل والهـوى ونقـص الإدراك، فقد يرى ما هو مفسدة مصلحة وما هو مـصلحة مفـسدة فيـشرع مـن الأحكـام مـا يفـوت المصلحة ويجلب المفسدة.

وقـد يـدرك المـصلحة؛ ولكـن مـا يـشرعه مـن أحكام يقصر عن تحصيلها، وسر المسألة أن صفات الـصانع تظهـر عـلى صـنعته ومـصنوعه، وحيـث أن الإنسان مهما يكمل فهو ناقص ومهما يصف فهو لا يخلو من هوى ومهما يؤت من علم فهو قليل. فإن هـذه الصفات تنعكس على ما يشرعه... أما شريعة

الإسلام فهي من صنع الله جل جلاله مبرأ من كل نقص فله الكمال المطلق، فما يشرعه من أحكام يأتي مبرأً من النقص والهوى، صالحًا للعباد، محققًا لهم الخير والفلاح؛ لأنه من صنع الخالق العظيم العالم بما يصلح لعباده ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾(١٥).

٥- المصلحة دليل من أدلة الأحكام

والشريعة في منهجها في التشريع وبناء الأحكام على المصلحة قد دلت على أن رعاية مصالح الناس دليل من أدلة استنباط الأحكام، وهذا ما فهمه علماء الإسلام فجعلوا المصلحة أصلًا من أصول استنباط الأحكام، فكل مصلحة تظهر وليس لها حكم في الشريعة؛ فإن الشريعة الإسلامية تأذن للمجتهدين بتشريع الحكم الملائم لتحقيقها وعلى هذا الأساس سار فقهاء الصحابة الكرام في استنباط الأحكام دون إنكار فيكون ما ذهبوا إليه إجماعًا سكوتيًا والإجماع حجة... فأبو بكر رضي الله عنه جمع القرآن لما رأى المصلحة في ذلك، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى قتل الجماعة بالواحد، واتخذ السجن، ودون الدواوين، وقاسم ولاته في أموالهم التي اكتسبوها بجاه السلطة، وجعلها لبيت المال، وعلي رضي الله عنه قال في تضمين الصناع ما يهلك في أيديهم من أموال الناس: «لا يصلح الناس إلا ذاك» إلى غير ذلك من اجتهادات الصحابة المبنية على المصلحة(١٦).

٦- ولا يعكر ما قلناه من اعتبار المصلحة أساسًا للاستنباط

اختلاف الفقهاء في حجية ا لمصلحة وصلاحيتها لاستنباط الأحكام، فإن هذا الخلاف يحكى في كتب أصول الفقه على نحو واسع؛ ولكن لا نجد آثاره بهذه السعة في كتب الفقه، فالفقهاء المنسوب إليهم إنكار حجية المصلحة وجدت لهم اجتهادات قامت على أساس المصلحة كما سنذكره بعد قليل؛ ولكن مما لا ريب فيه أن هناك فريقا من الفقهاء أنكر على المصلحة صلاحيتها لابتناء الأحكام عليها؛ ولكن هذا الفريق من الفقهاء محجوج بنهج الصحابة القويم في رعاية المصلحة. وبما قلناه عن ابتناء الشريعة على رعاية المصلحة، وأما ما احجتوا به في إنكارهم حجية المصلحة في استنباط الأحكام من أن الشارع الحكيم شرع لعباده ما يحقق مصالحهم، وأنه لم يترك مصلحة بلا تشريع وإلا كان ذلك قدحا في الشريعة ومناقضا

لقول الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾(١٧).

فإن هذه الحجة ضعيفة لا تنهض دليلا لإنكارهم. فالشريعة حقًّا قد راعت مصالح العباد، وشرعت من الأحكام ما يوصل إليها؛ ولكنها لم تنص على جميع جزئيات المصالح إلى يوم الدين وإنما نصت على بعضها، ودلت بمجموع أحكامها على أن المصلحة هي مقصود الشارع وغرضه من الأحكام، وأن للمجتهدين – بناء على ذلك – أن يستنبطوا الأحكام لتحقيق المصالح المستجدة والمسكوت عنها. وهذا المسلك من الشريعة في عدم النص على جميع جزئيات المصالح من محاسن الشريعة لا من مثالبها، ومن دلائل صلاحيتها للبقاء والعموم؛ لأن جزئيات المصالح تتغير وتتبدل، وإن كان أصل رعاية المصالح قائما ثابتا لا يتغير، فليس إذن من الضروري عد جزئيات المصالح مقدمًا، وتشريع حكم خاص لكل واحدة منها على حدة. وعلى هذا فاستنباط الأحكام على أساس المصلحة لا يكون افتئاتًا على حق الشارع العظيم في التشريع ولا يدل على ترك الخالق لعباده سدى؛ لأنه هو الذي أرشدنا إلى رعاية المصلحة والأخذ بها.

والحكم المستنبط على أساسها هو من أحكام الشريعة وما عمل المجتهد في هذا النوع من الاجتهاد إلا من قبيل الكشف عن حكم الشريعة لا من قبيل التشريع ابتداء.

٧– ضوابط الأخذ بالمصلحة

والأخذ بالمصلحة، والاعتداد بها، واعتبارها من مصادر التشريع لا يكون خلوا من كل قيد مطلقًا من كل ضابط. فالواقع أن العلماء وضعوا ضوابط للمصلحة المعتبرة التي تكون أساسا للاستنباط، فاشترطوا لها أن تكون ملائمة لمقاصد الشارع فلا تخالف أصلا من أصوله، ولا نصًّا من نصوصه؛ بل يجب أن تكون من جنس المصالح التي قصد الشارع تحصيلها أو قريبة منها ليست غريبة عنها، كما اشترطوا لها أن تكون معقولة بذاتها بحيث لو عرضت على أصحاب العقول السليمة لتلقتها بالقبول وفضلا عن ذلك، اشترطوا أن تكون المصلحة مؤدية إلى حفظ ما هو ضروري وهو حفظ الدين أو النفس أو العقل أو العرض أو المال، أو تحقيق رفع الحرج عن الناس(١٨).

وبناء على هذه الضوابط فكل اجتهاد أو قول أو إفتاء أو رأي بني على مصلحة متوهمة مخالفة لنص

شرعـي، لا يكـون هـذا الاجتهـاد إلا بـاطلا؛ لأنـه اجتهـاد في معرض النص، والقاعدة الفقهية تقول: «لا مساغ للاجتهاد في معرض النص»[١٩]. ومن هذا النوع من الاجتهادات الباطلة القائمة على مصالح متوهمة ما ذهب إليه بعض الناس من جواز تحريم تعدد الزوجات أو مساواة الذكر والأنثى في الميراث أو اشتراط إذن القاضي لصحة وقوع الطلاق...

٨- أمثلة من اجتهادات الفقهاء المبنية على المصلحة

أفتى المالكية بجواز فرض الضرائب على الأفراد القادرين عند الحاجة وضعف بيت المال، فقد جاء في تهذيب الفروق «توظيف الخراج على المسلمين من المصالح المرسلة»، ولا شك عندنا في جوازه وظهور مصلحته في بلاد الأندلس وفي زماننا لكثرة الحاجة لما يأخذه العدو من المسلمين سوى ما يحتاج إليه الناس وضعف بيت المال عنه... إلى آخر ما قال[٢٠] وأجازوا شهادة الصبيان بعضهم على بعض في الجراحات للمصلحة؛ لأنه لا يشهد لعبهم - عادة - غيرهم وإن لم يتوافر البلوغ وهو من شروط قبول الشهادة[٢١].

وقال الشافعية بجواز إتلاف الحيوانات التي يقاتل عليها الأعداء وإتلاف أشجارهم إذا كانت مصلحة الظفر بالأعداء والغلبة عليهم تستدعي ذلك[٢٢]، وعند الحنفية من ضروب الاستحسان، الاستحسان بالمصلحة ومنه تضمين الصناع ما يهلك تحت أيديهم من أموال الناس مع أن أيديهم أيدي أمانة. ومن أخذهم بالمصلحة ما ذهب إليه أبو حنيفة، فقد قال أبو يوسف عنه، قال أبو حنيفة رضي الله عنه: «وإذا أصاب المسلمون غنائم من متاع أو غنم فعجزوا عن حمله ذبحوا الغنم وحرقوا المتاع، وحرقوا الغنم كراهية أن ينتفع بذلك أهل الشرك»[٢٣] وذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى نفي أهل الفساد إلى بلد يؤمن فيه من شرهم[٢٤]، كما أفتى بجواز تخصيص أحد الأولاد بالهبة لمصلحة معينة كأن يكون مريضا، أو صاحب عيال، أو طالب علم أو محتاجا[٢٥]، وقال الفقهاء الحنابلة: إن لولي الأمر أن يكره المحتكرين على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند حاجة الناس إليه، وله أيضًا أن يجبر أصحاب الحرف والصناعات التي يحتاجها الناس على العمل بأجر المثل إذا امتنعوا عن العمل.

٩- ومن هذا كله يتبين لنا عظيم مكانة

المصلحة في الشريعة الإسلامية ومدى رعايتها، فقد قامت الشريعة على أساس تحقيق مصالح الناس، وأرشدت المكلفين إلى اعتبارها وعدها من أصول الاستنباط الفقهي، وعلى هذا النهج سار فقهاؤها العظام، فتركوا ثروة عظيمة من الفقه المبني على المصلحة ومهدوا الطريق لمن يأتي بعدهم للسير على نهجهم دون تهجم على الشريعة ولا تجاوز للحدود المرسومة للاجتهاد المصلحي، والله الموفق للصواب.

❊ ❊ ❊

الهوامش:

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٨.

(٢) سورة سبأ الآية ٢٨.

(٣) سورة الأحزاب الآية ٤٠.

(٤) قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام ج١ ص(٩١).

(٥) منهاج السنة لابن تيمية ج١ ص ١٤٧.

(٦) منهاج السنة لابن تيمية ج٢ ص ٢٤٠.

(٧) إعلام الموقعين لابن القيم ج٣ ص١.

(٨) الموافقات للشاطبي ج٢ ص٦/٣٧.

(٩) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

(١٠) سورة البقرة الآية ١٧٩.

(١١) سورة المائدة الآية ٩١.

(١٢) سورة البقرة الآية ١٨٥.

(١٣) سورة النساء الآية ١٣.

(١٤) سورة الحج الآية ٧٨.

(❊) هذه وجهة نظر.. ولكن هناك وجهة نظر أخرى تعتبر أن ما خصصه الله من ثواب في الآخرة للمحسنين وعقاب للمسيئين إنما هو لتحصين أعمال العباد في الدنيا وصرف هممهم إلى السعي لتحقيق مصالحهم وتحسين سلوكهم. وجزاء الآخرة أهم وأبقى.

(١٥) سورة الملك الآية ١٤.

(١٦) الطرق الحكيمة لابن القيم ص ١٤ وما بعدها.

(١٧) سورة القيامة الآية ٣٦.

(١٨) الاعتصام للشاطبي ج٢ ص ٣٠٧-٣١٤ وكتاب الإمام مالك لأستاذنا الشيخ محمد أبي زهرة ص ٤٠٢.

(١٩) كتابنا المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية ص ٩٥.

(٢٠) تهذيب الفروق والقواعد السنية في الأسرار الفقهية للشيخ محمد علي بن الشيخ حسن مفتي المالكية، وقد نقل المؤلف ما ذكرناه في الصلب عن الشيخ المالكي بعد أن ذكر عن الشاطبي أنه ممن يرى جواز ضرب ا لخراج على الناس عند الحاجة ج١ ص ١٤١.

(٢١) بداية المجتهد ج٢ ص ٣٨٤.

(٢٢) الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٦٠-٦١.

(٢٣) الرد على سير ا لأوزاعي للإمام أبي يوسف ص ٨٣.

(٢٤) المغني لابن قدامة الحنبلي ج٦ ص ١٠٧.

(٢٥) الطرق الحكيمة ص ٢٢٢، ٢٢٦.

❊ ❊ ❊

هل الاختلاف مذموم؟

بقلم: الأستاذ ماهر بن محمد القرشي

الاختلاف سنة كونية وضرورة بشرية، يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (هود: ١١٨-١١٩)، حيث أخبر الله ﷻ أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة متفقة، لكنه قدّر أن يكونوا مختلفين أبدًا.

وليس المراد في هذه الآية «الاختلاف في الصور، كالحسن والقبيح، والطويل والقصير، ولا في الألوان، كالأحمر والأسود، ولا في أصل الخلقة، كالتام الخلق والناقص الخلق، والأعمى والبصير، والأصم والسميع، ولا في الخُلق، كالشجاع والجبان، والجواد والبخيل. ولا فيما أشبه ذلك من الأوصاف التي هم مختلفون فيها. وإنما المراد اختلاف آخر وهو الاختلاف الذي بعث الله النبيين ليحكموا فيه بين المختلفين»[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوع الاختلاف بين الناس أمر ضروري لا بد منه لتفاوت إرادتهم وأفهامهم وقوى إدراكهم، ولكن المذموم بغي بعضهم على بعض وعدوانه، وإلا فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين والتحزب، وكل من المختلفين قصده طاعة الله ورسوله؛ لم يضر ذلك الاختلاف، فإنه أمر لا بد منه في النشأة الإنسانية»[٢].

إن اختلاف العقول أمر طبيعي، ومن العسير جمع الناس على مذهب واحد في الفكر والاستنتاج، وتصوُّر أن الأمة الإسلامية يمكن جمعها أو كان يمكن جمعها على وجهة نظر واحدة في فهم النصوص؛ شيء مستحيل أو قريب من المستحيل[٣]. «وقد ثبت عند النُّظار أن النظريات لا يمكن الاتفاق فيها عادة، فالظنيات عريقة في إمكان الاختلاف، لكن في الفروع دون الأصول وفي الجزئيات دون الكليات، فلذلك لا يضر هذا الاختلاف[٤].

وأما استثناء أهل الرحمة من الاختلاف في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ

رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ (هود: ١١٨-١١٩)، فقد نقل المفسرون عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أهل رحمة الله لا يختلفون اختلافًا يضرهم، وهو محمول على الاختلاف المشروع. وأما ما نُقل عن السلف بأن أهل الرحمة ليس فيهم اختلاف، فالمراد به الاختلاف المذموم. فيكون معنى الآية أن الناس مختلفون على أديان شتى، إلا من رحم ربك، وهم أهل الحق، فليس فيهم اختلاف يضرّ[٥]. قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأخبر أن أهل الرحمة لا يختلفون، وأهل الرحمة هم أتباع الأنبياء قولًا وفعلًا، وهم أهل القرآن والحديث من هذه الأمة، فمن خالفهم في شيء فاته من الرحمة بقدر ذلك»[٦].

وما دام أصل الاختلاف فطريًّا، فلا يمكن أن يحرِّمه دين الفطرة مطلقًا ويحسم مادته؛ لأن الإرادة الشرعية لا تناقض الإرادة الكونية[٧]، وإنما تنظِّمها وتبيِّن المشروع منها وغير المشروع؛ ولهذا الاعتبار كان من «الاختلاف» ما هو مشروع وما هو مذموم.

«إن من طبيعة الناس أن يختلفوا؛ لأن هذا الاختلاف أصل من أصول خلقتهم يحقق حكمة عليا من استخلاف هذا الكائن في الأرض. إن هذه الخلافة تحتاج إلى وظائف متنوعة، واستعدادات شتى من ألوان متعددة؛ كي تتكامل جميعها وتتناسق، وتؤدي دورها الكلي في الخلافة والعمارة، وفق التصميم الكلي المقدر في علم الله. فلا بد إذن من تنوع في ا لمواهب يقابل تنوع تلك الوظائف، ولا بد من اختلاف في الاستعدادات يقابل ذلك الاختلاف في الحاجات... ولكن الله يحب أن تبقى هذه الاختلافات المطلوبة الواقعة داخل إطار واسع عريض يسعها جميعًا حين تصلح وتستقيم، هذا الإطار هو إطار التصور الإيماني الصحيح، الذي ينفسح حتى يضم جوانحه على شتى الاستعدادات وشتى المواهب وشتى الطاقات، فلا يقتلها ولا يكبحها، ولكن ينظمها وينسقها ويدفعها في طريق الصلاح»[٨].

ومن هنا جاءت الشريعة بنصوص تذم الاختلاف وتحذر منه، وأخرى تمدح الاختلاف وتشرِّع له، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والاختلاف في كتاب الله على وجهين: أحدهما: أن يكون كله مذمومًا، كقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ (البقرة:١٧٦). والثاني: أن يكون بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل»[٩].

بيد أن ابن تيمية يستدرك على ذلك فيقول: «لكن إذا أطلق الاختلاف؛ فالجميع مذموم»[١٠]، واستدل على ذلك بدلائل متنوعة من الكتاب والسنة؛ ومن أجل ذلك أطلق ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ ذم الاختلاف، فقال: «الخلاف شر»[١١]؛ بل يذهب

ابـن حـزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أبعـد مـن ذلـك، فيقـول: «والاختلاف لا يسع البتة ولا يجوز ... وإنما الفرض علينا اتباع ما جاء به القرآن عن الله تعالى الذي شرع لنا دين الإسلام وما صح عن رسول الله ﷺ الذي أمره الله تعالى ببيان الدين... وقد غلط قوم، فقالوا: الاختلاف رحمة... وهذا من أفسد قول يكون؛ لأنه لو كان الاختلاف رحمة؛ لكان الاتفاق سخطا، هذا ما لا يقوله مسلم؛ لأنه ليس إلا اتفاق أو اختلاف، وليس إلا رحمة أو سخط»(١٢).

وفي المقابل ورد عن السلف ما يدل على أن الاختلاف رحمة وتوسعة، كقول القاسم بن محمد: «لقد نفع الله باختلاف أصحاب النبي ﷺ في أعمالهم، لا يعمل العامل بعمل رجل منهم، إلا رأى أنه في سعة»(١٣)، وقول عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا؛ لأنه لو كان قولا واحدا كان الناس في ضيق، وإنهم أئمة يقتدى بهم، ولو أخذ رجل بقول أحدهم كان في سعة»(١٤).

وليس ثمة تعارض بين إطلاق الذم للاختلاف وإطلاق السعة والرحمة عليه؛ إذ المراد بإطلاق الذم له: الاختلاف الممنوع، كالاختلاف في أصول الدين، وهو الذي جاء في القرآن الكريم التحذير منه، قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة:٢١٣): «الآية تقتضي تحذير المسلمين من الوقوع فيما وقعت فيه الأمم السابقة من الاختلاف في الدين أي في أصول الإسلام، فالخلاف الحاصل بين علماء الإسلام ليس اختلافًا في أصول الشريعة، فإنها إجماعية، وقد أجمعوا على أنهم يريدون تحقيقها؛ ولذلك اتفقت أصولهم في البحث عن مراد الله تعالى وعن سنة رسوله؛ للاستدلال عن مقصد الشارع وتصرفاته، واتفقوا في أكثر الفروع، وإنما اختلفوا في تعيين كيفية الوصول إلى مقصد الشارع، وقد استبرؤوا للدين، فأعلنوا جميعًا أن لله تعالى حُكمًا في كل مسألة، وأنه حكم واحد، وأنه كلف المجتهدين بإصابته وأن المصيب واحد، وأن مخطئه أقل ثوابًا من مصيبه، وأن التقصير في طلبه إثم. فالاختلاف الحاصل بين علمائنا اختلافٌ جليل المقدار موسعٌ للأنظار»(١٥)، وقال الآمدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يجب حمل ما ورد من ذم الاختلاف والنهي عنه على الاختلاف في التوحيد والإيمان بالله ورسوله والقيام بنصرته، وفيما المطلوب فيه القطع دون الظن، والاختلاف بعد الوفاق، واختلاف العامة ومن

ليس له أهلية النظر والاجتهاد، وبالجملة كل ما لا يجوز فيه الاختلاف جمعًا بين الأدلة بأقصى الإمكان»(١٦).

والمراد بإطلاق الرحمة والسعة: الاختلاف المشروع؛ ولهذا قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد نقله لأثر عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ السابق: «هذا فيما كان طريقه الاجتهاد»(١٧)، وقال إسماعيل القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما التوسعة في اختلاف أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توسعة في اجتهاد الرأي، فأما أن يكون توسعة لأن يقول الناس بقول واحد منهم من غير أن يكون الحق عنده فيه فلا، ولكن اختلافهم يدل على أنهم اجتهدوا فاختلفوا»(١٨)، ويقول القاضي ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الاختلاف والتفرق المنهي عنه إنما هو المؤدي إلى الفتنة والتعصب وتشتيت الجماعة، فأما الاختلاف في الفروع فهو من محاسن الشريعة»(١٩).

والاختلاف قرين الاجتهاد؛ ولهذا قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعليقًا على آثار السلف في وصف الاختلاف بالرحمة والسعة: «ومعنى هذا أنهم فتحوا للناس باب ا لاجتهاد وجواز الاختلاف فيه؛ لأنهم لو لم يفتحوه لكان المجتهدون في ضيق؛ لأن مجال الاجتهاد ومجالات الظنون لا تتفق عادة..فيصير أهل الاجتهاد مع تكليفهم باتباع ما غلب على ظنونهم مكلفين باتباع خلافه، وهو نوع من تكليف ما لا يطاق، وذلك من أعظم الضيق. فوسع الله على الأمة بوجود الخلاف الفروعي فيهم، فكان فتح باب للأمة للدخول في هذه الرحمة، فكيف لا يدخلون في قسم من ﴿رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ (هود:١١٨-١١٩)؟! فاختلافهم في الفروع كاتفاقهم فيها، والحمد لله»(٢٠).

غير أن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يرى التعبير عن الاختلاف المشروع – عند الإطلاق – بالرحمة والسعة، وليس بالاختلاف؛ فإن تلميذه إسحاق بن بهلول الأنباري سمى كتابه: «كتاب الاختلاف» فقال له أحمد: «سمه «كتاب السعة»(٢١)»، وربما كان ذلك منه تنبيهًا إلى أن لفظ «الاختلاف» لم يأت في كتاب الله مطلقًا إلا على سبيل الذم.

والمقصود من ذلك كله أن الاختلاف على نوعين: اختلاف مذموم واختلاف مشروع، قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يصف هذين النوعين من الاختلاف في معرض محاورة جرت بينه وبين رجل آخر: «قال: فإني أجد أهل العلم قديمًا وحديثًا مختلفين في بعض أمورهم، فهل يسعهم ذلك؟ قال: فقلت له: الاختلاف من وجهين: أحدهما: محرم، ولا أقول ذلك في الآخر. قال: فما الاختلاف المحرم؟ قلت: كل ما أقام الله به الحجة في كتابه أو

على لسان نبيه منصوصًا بينًا؛ لم يحل الاختلاف فيه لمن علمه. وما كان من ذلك يحتمل التأويل، ويدرك قياسًا، فذهب المتأول أو القايس إلى معنى يحتمله الخبر أو القياس، وإن خالفه فيه غيره؛ لم أقل: إنه يضيق عليه ضيق الخلاف في المنصوص»(٢٢).

والاختلاف منه ما يكون على سبيل التنوع ومنه ما يكون على سبيل التضاد، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ واصفًا هذين القسمين: «واختلاف التنوع على وجوه؛ منه ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقا مشروعًا، كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة، حتى زجرهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «كلاكما محسن». ومثله اختلاف الأنواع في صفة الأذان، والإقامة، والاستفتاح، والتشهدات، وصلاة الخوف، وتكبيرات العيد، وتكبيرات الجنازة إلى غير ذلك مما قد شرع جميعه، وإن كان قد يقال: إن بعض أنواعه أفضل... ومنه ما يكون كل من القولين هو في معنى قول الآخر، لكن العبارتين مختلفتان، كما قد يختلف كثير من الناس في ألفاظ الحدود وصيغ الأدلة، والتعبير عن المسميات، وتقسيم الأحكام، وغير ذلك... ومنه ما يكون المعنيان غيرين لكن لا يتنافيان؛ فهذا قول صحيح، وهذا قول صحيح، وإن لم يكن معنى أحدهما هو معنى الآخر، وهذا كثير في المنازعات جدًّا. ومنه ما يكون طريقتان مشروعتين، ورجل أو قوم قد سلكوا هذه الطريق، وآخرون قد سلكوا الأخرى، وكلاهما حسن في الدين... وأما اختلاف التضاد فهو القولان المتنافيان؛ إما في الأصول وإما في الفروع، عند الجمهور الذين يقولون: المصيب واحد، وإلا فمن قال: كل مجتهد مصيب فعنده هو من باب اختلاف التنوع، لا اختلاف التضاد؛ فهذا الخطب فيه أشد؛ لأن القولين يتنافيان، لكن نجد كثيرًا من هؤلاء قد يكون القول ا لباطل الذي مع منازعه فيه حق ما، أو معه دليل يقتضي حقًّا ما، فيرد الحق في الأصل هذا كله، حتى يبقى هذا مبطلًا في البعض كما كان الأول مبطلًا في الأصل... وهذا القسم الذي سميناه اختلاف التنوع كل واحد من المختلفين مصيب فيه بلاد تردد؛ لكن الذم واقع على من بغى على الآخر فيه، وقد دل القرآن على حمد كل واحد من الطائفتين في مثل ذلك إذا لم يحصل بغي كما في قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (الحشر:٥). وقد كانوا اختلفوا في قطع الأشجار، فقطع قوم وترك آخرون... ونظائره كثيرة»(٢٣).

بقيت الإشارة إلى أن ذم الاختلاف غير المشروع لا يعني بالضرورة ذم المختلفين فيه؛ بل من

اجتهد منهم وبذل وسعه للوصول إلى الحق فأخطأ؛ فهو معذور؛ إذ إنّ مناط ذم المختلفين راجع إلى التفريط في اتباع الحق أو التعدي في سلوك السبل التي نهى الله تعالى عنها، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم يقل أحد من السلف والصحابة والتابعين: إن المجتهد الذي استفرغ وسعه في طلب الحق يأثم، لا في الأصول ولا في الفروع»[٢٤]، ويقول في موضع آخر: «فمن كان خطؤه؛ لتفريطه فيما يجب عليه من اتباع القرآن والإيمان مثلًا، أو لتعديه حدود الله بسلوك السبل التي نهى عنها، أو لاتباع هواه بغير هدى من الله، فهو الظالم لنفسه، وهو من أهل الوعيد. بخلاف المجتهد في طاعة الله ورسوله باطنًا وظاهرًا، الذي يطلب الحق باجتهاده، كما أمره الله ورسوله؛ فهذا مغفور له خطؤه»[٢٥].

* * *

الهوامش:

(١) الاعتصام (٦٧٠-٦٧١).

(٢) الصواعق المرسلة (٥١٩/٢).

(٣) ينظر: دستور الوحدة الثقافية (٥٣).

(٤) الاعتصام (٦٧٤).

(٥) ينظر: تفسير الطبري (٦٣٨/١٢)؛ تفسير ابن كثير (٣٦٢/٤)؛ التحرير والتنوير (١٨٨/١٢-١٩٠).

(٦) مجموع الفتاوى (٥٢/٤).

(٧) ينظر: اختلاف المفتين (١٢-١٣).

(٨) في ظلال القرآن (٢١٥/١-٢١٦).

(٩) منهاج السنة (٢٥٧/٥).

(١٠) المرجع السابق.

(١١) سنن أبي داود برقم (١٩٦٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٤٤/١).

(١٢) الإحكام في أصول الأحكام (٦٤/٥).

(١٣) جامع بيان العلم وفضله (٩٠٠/٢).

(١٤) المرجع السابق (٩٠١/٢).

(١٥) التحرير والتنوير (٣١١/٢).

(١٦) الإحكام في أصول الأحكام (١٥/٣).

(١٧) بيان العلم وفضله (٩٠١/٢).

(١٨) المرجع السابق (٩٠٦/٢).

(١٩) أحكام القرآن (٣٨٢/١).

(٢٠) الاعتصام (٦٧٧).

(٢١) ينظر: طبقات الحنابلة (١١١/١)؛ المسودة في أصول الفقه (٤٥٠)؛ المدخل المفصل إلى مذهب الإمام أحمد (٩٩/١).

(٢٢) الرسالة (٥٦٠).

(٢٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١٣٨/١-١٦٥). وينظر: في الطريق إلى الألفة الإسلامية (١٣٧-١٤٠)؛ فقه الرد على المخالف (٢٦-٢٩)؛ اختلاف التنوع (٥٣-٧٦)؛ الخلاف أنواعه وضوابطه (٥٥-٦٠)؛ فقه الائتلاف (٣٣)؛ فقه الاختلاف مبادئه وضوابطه (٥٨-٦٣)؛ محتكمات الخلاف الفقهي (٩٩-١١١).

(٢٤) مجموع الفتاوى (١٢٥/١٣).

(٢٥) مجموع الفتاوى (٣١٧/٣). وينظر: في الطريق إلى الألفة الإسلامية (١٥١-١٥٩)؛ فقه الرد على المخالف (٣٢-٣٥).

* * *

هذه أعمال دائم ثوابُها

بقلم: الدكتور/ علي عبد المنعم عبد الحميد

عــن أبي هريــرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رســول الله ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» (رواه الإمام مسلم).

١- الموت أمر لا بد منه ﴿كُلُّ نَفْــسٍ ذَآئِقَــةُ ٱلْمَــوْتِ﴾ (آل عمران:١٨٥) وانتهاء الأجل حقيقة لا ريــب فيهــا، وقــضاء محتــوم لا يحتمــل الجــدل، لا محيص عنه ولا مناص منه، لا جند يدفعه، ولا قوة ترده. ومن الناس من إذا مات لا تحس به الدنيا، ولا يترك وراءه فراغا يتطلبه، هان على نفسه في حياته الدنيا فأهمل تكوينها، وغفل عن حقائقها، فخبا ذكره ساعة صعود روحه إلى بارئها، ولم يعد له وجود كما لم يبق له أثر يدل عليه، ومنهم من جال في دنيــاه وصــال، فجــاب الأرض وطــاول الجبــال، وغاص على در الحياة وغرف من أنهارها، وأدلى بدلوه في كل مجال، فإذا قبضت روحه نعته الدنيا بأسرها وناحت عليه بواغمها والعجماوات، وعز على أهلها أن يواريه غيب محجوب، وينأى به عن ساحتهم قدر مكتوب. ولما كان مقياس الإسلام عامًا يشمل خامل الذكر والنابه، سعى دائمًا إلى الطريقة المثلى والقدر المشترك الذي تقوم به عمارة الكون ما بقي كون، والذي يستطيع المساهمة فيه المقل من الجهد والمكثر فيه فلا يعيا به الضعيف الواهن، ولا يفوت القوي المتوثب.

ولكلٍّ جزاء وتقدير، والنتيجة صلاح هنا وجنى طيب للثمار هناك ذلك هو أن يقدم المسلم زادًا لنفسه من عمل يده، وبواسطة كدحه وجده، كسب حلال وإنفاق في الوجوه المشروعة الدائمة النفع الثرارة بالخير دائمًا، وما أكثر الدروب والمسالك الموصلة إلى الحسنى وزيادة، ولكن سيدي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، اختار ثلاثة من عديد لكثرة خيرها، ولشمول نفعها في الحياة وبعد الموت، وتفاعلها مع المجتمع الذي تنفق فيه تجارتها، وتدعيمها لبنيانه، وإرسائها لأسسه على أصول ثابتة

قويـة فـما الكـلام بـالمنطوق وكفـى، ولا بـما يلفـظ وحسب، وإنما هناك معان عميقة، وآثار دفينة تختبئ وراء فـصاحة سـيدي رسـول الله تـنعم الـدنيا لـو سارت على نهجها بالراحة النفسية والرضا القلبي والطمأنينة الدائمة، وخذ القول من مصادره ولا تعقب.

٢- إذا مات ابن آدم انقطع عمله، حقيقة ولا ريب، من مات فنى، والفناء لا ينتج، وإذا دفن تلاشى من على سطح البسيطة، والمتلاشي لا يقوم بنيانًا، ولا يؤثر في منفعل، فانقطاع العمل الفعلي المؤثر في غيره متابع دائمًا للموت، وتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا إذًا فما العمل؟ وما هي الوسيلة التي يرسمها الإسلام أو التي يجب أن يقرها ويدعو إليها لتكون سيرة طيبة ونفعًا شاملا لصاحبها في دنياه وبعد رحيله عن الدنيا.

وضع سيدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتحقيق ذلك الهدف ثلاث طرائق، كلها بر وخير ورحمة وبركة للمجتمع الذي يعيش فيه المسلم العامل بها وللعامل نفسه، وإليك إيضاح القول:

أ- صدقة جارية: ما هي الصدقة الجارية؟ هي الدائمة المستمرة المتواصلة، وكيف يمكن الحصول على مصدر يغل صدقة جارية بعد موت صاحبها، هذا لن يكون إلا بجهد وعرق وصبر وجلد وعمل متواصل للإنتاج والدأب الغير المنقطع حتى تكون للمسلم ثروته التي يخلف منها صدقة جارية وهو أي فعل أفاد المجتمع الذي يعيش فيه فالإنتاج المثمر لا يكون إلا عن طريق مصنع أو متجر أو مزرعة، وليس هذا بالقدر المعتاد لمواصلة الحياة وإنما يأتي من الزيادة والنماء، والفيض عن المنصرف ففي هذا دعوة كافة للتصنيع والبناء والإعمار بالطرق المشروعة المتعارفة إسلاميًا واجتماعيًا المرضي عنها من رب العالمين، فإذا وجد المال وفاض عن الحاجة أمكن لصاحبه أن يجعل الفائض في بناء مدرسة عامة، تقضي على الجهل، أو مستشفى يزيل الآلام، أو آلة يدافع بها عن المسلمين، ومن هنا نشأ نظام الأحباس في الإسلام، وحبس العقارات والممتلكات الثابتة على المعوزين، وما أكثرهم في كل زمان ومكان، ويقول العلي الكبير في محكم ما أنزل على خير خلقه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ ...﴾ الآية (يٰس:١٢). ومن هذا أيضًا بناء دور الضيافة تؤوي عابري السبيل وتضم بين جوانحها أبناء الطريق الغرباء عن ديارهم وتمدهم بما يوصلهم إلى مستقرهم، حتى ما كان يفعله السلف الصالح من غرس الأشجار ليستظل

بها السابلة من حمارة القيظ، فتلك أمور يتجدد نفعها ويـدوم ثوابهـا ويعـود بالإحـسان والرحمـات عـلى صاحبها، وهي من كسبه وسعيه وجهده ولاشك.

ب- أو علـم ينتفـع بـه: ويندرج تحت هـذا القسم من الحديث الشريف كل أنواع العلوم المفيدة للإنسانية دنيويًا وأخرويًا، وما من شيء له قيمة في الـدنيا إلا وإحسانه يـؤدي إلى ثـواب الآخـرة، فلـو صـدرت عـن مـؤمن بـالله واليـوم الآخـر مخترعـات نافعة كـان له ثوابها في الآخرة، وأما صدورها عن الكـافر الجاحـد فأمرهـا موكـول إلى عـلام الغيـوب وحده ولا نستطيع لها حكما، وكذلك من أسهم في تحرير المؤلفات الشارحة للإسلام الداعية إلى الخير الموجهـة إلى الله تبـارك وتعـالى، كـان عملـه هـذا مندرجا تحت هذا المقطع من الحديث الشريف، وما أحـوج زماننـا في جميـع دولـه وقاراتـه المعـاصرة إلى علـماء مسلمين فـاقهين مجيـدين أقويـاء الإيـمان بـالله عاملين بكتابه وسنة رسوله؛ ليحملوا تلك الرسالة الكريمة إلى الدنيا المعاصرة، فهناك فراغ في الوجود الفكـري لا يملـؤه إلا فقـه الإسـلام ومعرفـة رب السماوات والأرض، فـأين الطبيـب النطـاس الفاقـه ليداوي بإخلاص كلوم الإنسانية المعذبة التي سلك بها فلاسفة العصر سبلا أوصلتها إلى بهيمية هوجاء، وشـهوات جامحة، فمـن وفقـه الله للاقتـداء بـسيدي رسول الله في الاستهانة بالمعوقات والمضي في سبيل الله كـان حظـه وفـيرا في الـدنيا والآخـرة، وقـد قيـل لـسيدي رسـول الله: إن دعوتـك إلى الله الواحـد تـشقيك وتتعبـك، وتبعـدك عـن قومـك وشـيعتك، فيجيبهم القرآن الكريم في آيات محكمات: ﴿طـه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾(مريم:١-٣). وهذه الدعوة ليست منك وإنما أنت رسوله المصطفى ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ (طه:٤) وتمضي الآيات الكريمات موضحة قدرة الله مظهرة عظمته، وأن من كان صاحب هذه القدرة فهو حافظ رسوله ومحيطه بعنايته ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ (المائدة:٦٧). وتسرد الآيات المحكمة على رسول الله قصص إخوانه الرسل السابقين، وتشرح له حال موسى عليه السلام وما كان من ضعف أمه وهي سيدة مستضعفة لا حول لها ولا طول ومع هذا يشاء العـلي القـدير أن يـربي موسـى في حجـر عـدو الله وعدوه فرعون.. ثم يؤيده بأخيه هارون: ويدعوهما إلى الانطـلاق إلى فرعـون يدعوانـه إلى الله، وأن لا يهابا جاهه ولا يخشيا سلطانه، ويناديهما رب السماء والأرض حـين يبـدو علـيهما الـضعف الإنـساني

﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ (النساء:٢٨) فيقولان: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ (طه:٤٥) يقول لهما ربهما.. ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾(طه:٤٦).

فمن سلك هذا السبيل في عصرنا حاملًا كتاب الله إلى الناس أجمعين، كان له أجر الصديقين وكان عمله وإنتاجه علمًا يدر عليه الرحمان ما لاح كوكب وما بدت ذكاء.

ولا أرى زمانا هو في حاجة إلى الإسلام صافيًا طاهرًا خاليًا من الشوائب مثل زماننا هذا الذي بث فيه دعاة الشر أفكارهم ونفثوا فيه سمومهم، وبرزوا متصدرين الجماهير العاثرة خلقيًا الميتة روحيًا المنبتة عن قيوم السماوات والأرض انبتاتا كاملًا، لا أجد شيئا يدوم ثوابه وتستمر رحماته من دعوة طيبة وكلمة كريمة وكتابة مفيدة تقدم لتلك القطعان الضالة، لتردها إلى النهج القويم، ولا يظن ظان أن الأضواء التي تتراءى هنا وهناك من رحلات إلى القمر واكتشافات مثيرة قد تدعو إلى الهدوء والاطمئنان، كلا وربي إنها لتزيد الطين بلة وتضاعف البلاء، ولا منجاة إلا بالاعتصام بحبل الله مهما طال المدى وزادت المكتشفات المخبوءة في الأرض والسماوات.

ج- أو ولد صالح يدعو له: وهذا من جوامع الكلم الطيب الذي قلت كلماته وتعددت معانيه، فالولد الصالح هو الذي رباه أبوه فأحسن تربيته، وقومه فأجاد تقويمه، وهداه إلى الحق فاتبعه وإلى نور الإسلام فاستضاء به، ذلك الولد لا يصدر عنه إلا البر بوالديه وإسداء المعروف لهما أحياءً وأمواتًا، وهذه دعوة قوية من سيدي رسول الله إلى تكوين جيل صالح من الأبناء، والعمل على ما يوصلهم إلى القمة القيادية في أحسن صورة وأقوم مسلك، حتى تصدر عنهم الأفعال النافعة للوطن؛ ليصبحوا مصابيح تضيء حالك الليالي، وأقمارًا يهتدى على ضوئها المدلج الحائر وفي الحديث الشريف (.. وإن ولد الرجل من كسبه).

وأخيرًا نخلص من هذا الحديث الشريف بثروة اجتماعية عظيمة لو طبقت لأثمرت وأنتجت خيرًا كثيرًا. فالعامل في شعاب الحياة ليثري عن طريق مشروع هو لبنة صالحة في بناء المجتمع، وكذلك موجه علمه إلى نفع الناس وإرشادهم.

وأخيرًا الساهر على مصلحة الأولاد ورعايتهم ينشئ جيلًا طيبًا كريمًا، وهكذا نجد التوجيه الكريم دائما في سنة رسول الله وهديه، ولعل الله يوفق القائمين على أمور المسلمين إلى التطبيق العملي المنتج إنه نعم المستعان جل وعلا.

طرائف من أخبار الكُتاب

بقلم: أبو القاسم عبد اللّه بن عبد العزيز البغدادي

روي عـن زيـد بـن ثابـت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[1]، قـال: دخلـت عـلى رسـول الله ﷺ، وهـو يمـلي في بعـض حوائجه، فقال: «ضع قلمك على أذنك، فهو أذكر للمملي»[2]. وروي عن وهب، قال: «أول من خط بالقلم، وأول من خاط الثياب ولبسها، إدريس عليه السلام، وكان الناس من قبل يلبسون الجلود»[3]. وروي عن عبد الحميد بن يحيى أنه خرج ذات يوم إلى الديوان، فرأي له ثمانية أولاد يحررون الكتب فسر بهم، وقال:

إذا جرح الكتاب كانت دويهم

قسيا وأقلام الدوي لهانبلا[4]

وروي عن عباس عن أبي موسى: أن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال لأبي موسى: «ادع لي كاتبك ليقرأ لنا صحفا جاءت من الشام. فقال أبو موسى: إنه لا يدخل المسجد، فقال عمر: أبه جنابة؟ قال: لا، ولكنه نصراني، قال: فرفع يده وضرب فخذه حتى كاد يكسرها، ثم قال: مالك! قاتلك الله؟ أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾[5]؟ ألا اتخذت رجلا حنيفًا؟ فقال: له دينه ولي كتابته، فقال عمر: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله»[6].

وذكر لعمر بن الخطاب غلام من أهل الحيرة، وكان نصرانيا، فقيل له[7]: «لو اتخذته كاتبًا، فقال: لقد اتخذت إذًا بطانة من دون المؤمنين».

وروي عن حنظلة[8] كاتب رسول الله ﷺ: أنه كان يكتب لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وليست نفسه إلى كتابته، وجاء الزبير[9] إلى النبي ﷺ، فقال له: كيف أصبحت جعلت فداك؟ فقال: «ما تركت أعرابيتك»[10]، وقال في مثل ذلك الشاعر[11]:

إذا ما أتى يوم يفرق بيننا

بموت، فكن أنت الذي تتأخر

وقال عدي بن الرقاع[12]:

صلى الإله على امرئ ودعته

وأتم نعمتـه عليـه وزادها

ومنه أخذ الكتاب: «وأتم نعمته عليك وزاد

فيها عندك»[١٣]. وقال آخر:

فإني بحمد الله لاسم حية

سقتني ولا شدت على كف ذابحي[١٤]

ومنه أخذ الكتاب: «واشدد على يديه».

وقال عبد الملك بن مروان لأخيه عبد العزيز، حين وجهه إلى مصر: «تفقد كاتبك وحاجبك وخليفتك، فإن الغائب يخبره عنك كاتبك، والمتوسم يعرفك بحاجبك، والخارج من عندك يعرفك بخليفتك»[١٥].

وكان يقال: للكاتب على الملك ثلاث: «رفع الحجاب عنه، واتهام الوشاة عليه وإفشاء السر إليه»[١٦]. وحدث إسماعيل بن محمد بن مرهب، عن هشام بن خلف الدمشقي، عن بقية بن الوليد الحمصي، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«تربوا الكتاب، وسحوه من أسفله، فهو أنجح للحاجة»[١٧]. وكان كاتب إسحاق بن إسماعيل[١٨] صاحب تفليس بليغا، وكان يقول: «أصعب الكلام مضغًا، أسهله مسمعًا».

وقال إسماعيل بن عبد الحميد بن يحيى الكاتب، وذكر عنده الكتاب، فقال: «من إذا قرأ كتابه الناس توهموا أنهم يحسنون مثله، فإذا تعاطوا ذاك لم يقدروا عليه». وذكر عبد الحميد بن يحيى الكاتب يومًا في مجلس فيه جماعة من الكتاب، فقال إسماعيل ابنه – وكان حاضرا فسألوه أن يصف ما عنده من المعرفة ببلاغته ليكون ذلك مأثورا عنه، محفوظا منه – فقال: «كان الكتاب قبل عبد الحميد ابن يحيى حروفًا حريدة، متقطعة الأوصال عن معاني التأليف، منقوصة القوى عن مذاهب المعاني، غير مونقة للأسماع، ولا مستوعبة للحجج، تدل على أعيان الأشياء دلالة ضعيفة، وتخبر عن القلوب إخبارا غير كاف، وتوءدي إليها تأدية غير شافية، وكانت حظوظ الكتاب على قدر غنائهم، وكان غناؤهم على أقدار هممهم في البلاغة، دون ورود بحور الأفهام، وفتح عيون ينابيع الكلام على رسم من التشقيق والتأليف والتشبيه والأمثال، قد كان عليه الشعراء، ثم تلاهم في مثله الخطباء فلما أفضت الأمور في ذلك إلى عبد الحميد، راض صعاب الكلام فسهلها، وركب ذلك فامتهنها، ثم وصله توصيلًا أظهر زينته، وألفه تأليفًا ألبسه حليته، واستنبط ا لرأي من خزائنه استنباطًا قويًا، واستقصى المعاني من وجوهها استقصاء شافيًا، وصرف الحجج، وصنف الأمور، وفتق عنها أكمامها وهتك عن القلوب حجبها، وقذف في الأسماع منافعها، وانتظم كلام المتكلمين وخطب المتنطعين وشعر السالفين ومواعظ الواعظين، فصير ذلك منهاجًا

فات فيه سبقه، وبرز فيه مهله، وذهب فيه شأوه، وأبان[١٩] فيه فضله، وثبتت فيه رئاسته، ووجب به على أهل صناعته حقه وشكره، ونالوا منه منزلة شرف كانوا عنها متضعين، وركبوا به طريقة فضل كانوا عنها مقصرين، فصارت لهم الوزارة، وعندهم الكفاية، ولهم فضائل الأدب، وصارت كتبه محكمة باقية دائمة نافعة، يحتذي عليها الباقون ويمتثلها المتنطعون، وينتهي إليها الأمثلون، ويعرف فضلها الأولون من أهل زمانه والآخرون، فمن أحسن منا معشر الكتاب فإنما اتبع من عبد الحميد أثرا إليه ينسب إحسانه، ومن قصر فغير متهم على الإجهاد والاحتياط، ولا ملوم على التقصير عن مساواة فضله وبالله التوفيق».

قال: فنمى الكلام إلى يحيى بن خالد[٢٠]، فأعجبه، ووجه إلى إسماعيل، فأحضر، وبين يديه مرفع عليه دفتر كبير، فقال: يا إسماعيل، أتدري ما بين يدي؟ قال: نعم، مصحف. قال: لا، ولكن رسائل أبيك، فإنا ما نلتمس شيئًا نريد أن نؤيد به الملك إلا وجدنا أباك قد سبقنا إليه.

وقال بعض الكتاب: رأيت رغبان الحمصي، وهو آخذ بيد يزيد بن عبد الحميد بن يحيى، وهو يومئذ غلام، وقد رفع يزيد إلى المهدي في ضياع لهم فوقع المهدي: «يرد على ولد عبد الحميد كل ما أفاده عبد الحميد في أيام مروان». قال: فجعل رغبان يقول: «يا معشر الكتاب، احفظوا عبد الحميد في ولده، تحفظون في أولادكم». فقاموا بأجمعهم في أمره إلى أن صار إلى أفضل محبته.

قال بعض الكتاب[٢١]: «الكتاب خمسة: كاتب خراج يحتاج أن يكون عارفا بالطسوق والمساحة خبيرًا بالحساب في المقاسمات[٢٢]، وكاتب رسائل يحتاج أن يكون عارفا بالوصول والفصول حاذقا بالصدور والفتوح والعهود[٢٣]، وكاتب حاكم يحتاج أن يكون عارفا بالأحكام حافظا للشروط حاذقا باختلاف الناس في الأموال والفروج[٢٤]، وكاتب جند يحتاج أن يكون عارفا بشيات الدواب وحلي الرجال[٢٥]، وكاتب معونة يحتاج أن يكون عالما بالقصاص والجراحات والحدود ولطائف التعزيرات ووجوه الاحتياط على أهل الجرائم والجنايات»[٢٦].

وقال عبد الحميد بن يحيى في رسالة له إلى خالد بن ربيعة الإفريقي[٢٧] يصنف الكتاب: «إن الكتاب قليل، والمتسمون بالكتاب كثير، والقلم معين على نفسه من أخذه ممن أدخل نفسه في الكتاب مصطبرًا على ما ينوبه فيه من العفاف عن المطامع، والتتبع للمعروف، وترك التضجر بأهل الانقطاع، وصبر على النوائب، وحاول جر المنافع إلى الصديق،

وأظهر بشره وحسن قبوله ومعاملته من لا يعرف، فهو الذي احتوى على الكتاب واحتوى الكتاب عليه». وقال أيضًا: «أنتم، معشر الكتاب، خيار الخيار، وذوو الأخطار، على أيديكم مجاري الخير والنعم، تقومون بحمل الآداب حتى تصير إلى رشدها أو غيها، ليس فوقكم رغبة لذي مطلب، فأفضلكم الفاضل، وخيركم الخير. أئمة مطاعة وساسة مهابة، تشهدون ما غاب الناس عنه. أعيادكم مطراة، وأفنيتكم عامرة، وخيركم منتظر، وشركم مخوف، من تحرك منكم فيه هوى ارتفعت به درجات الشرف، ومن احتملتم عليه زلت به قدمه، فليست حال يبتغي بها كاتب من ربه منزلة ما خلا الرئاسة تعدل مكان الكاتب من غايته التي هو فيها، أصول إن صال، ولا أنقد إن قال مقالا منه. فلتكن أخطاركم حيث وضعكم الله من عباده وفي بلاده، فإنه لا أقبح من كاتب دق نظره وصغر خطره في المعروف أن يبيعه، أو يباع له. فاجعلوا إسداء المعروف إلى الناس تجاراتكم المربحة إن شاء الله».

أخبرنا المهلب بن محمد الأسدي، عن عبد الله ابن يحيى بن خاقان[٢٨] مولى أمير المؤمنين، قال: اعتللت علة صعبة، فعادني المتوكل في بني هاشم وسائر القواد. فلما خرج قال لي أبي يحيى بن خاقان: يا بني، إنك قد بلغت المرتبة التي لا نهاية بعدها لأمثالك، فقابل هذه النعمة بالشكر، واحفظ عني خلالًا أوصيك بهن: لا تصل بهذا الملك إلا من تأمنه على الناس، وعليك باستعمال الصبر، ومجانبة الضرر. قال: قلت: أفعل. قال: فما تبلغ من صبرك؟. قال، قلت: أتجرع غصص الغيظ، ولا أبدي لأحد قطوبًا. فقال لي: ما أديت بعد الواجب عليك في شكر النعمة؛ بل عليك بالصبر الذي يورثك السل».

وروي عن الأنصاري المحرر[٢٩]، قال: «كنت أكتب في ديوان الأحول مع جماعة من الأحداث، فقربت من الأحول، وأخذت من خطه، وسرقت قلمًا من أقلامه، فجاد به خطي. قال فلحظني يومًا، فرأى خطي جيدًا، فنظر في دواته فافتقد قلما من أقلامه، ثم نظر في دواتي فوجده، فأخذه، وأبعدني. وكان إذا أراد أن يقوم من مجلسه أو ينصرف قطع رؤوس أقلامه كلها، وقال: الخط كله القلم».

كتب رجل إلى سهل بن هارون[٣٠] يستميحه، فكتب إليه سهل: «أما بعد، فأني لا أعرف للمعروف طريقا هو أضل ولا أوعر منه إليك، لأنه منك بين لسان بذي وحسب دني، وإنما دهرك فيه أن تستره وفي صاحبه أن تكفره، والسلام»[٣١].

حدثني أبو علي محمد بن عبد الحميد الكاتب، قال: حدثني أبو محمد بن أخي قهامة بن زيد كاتب

عبد الملك بن صالح[٣٢] عن أبيه، قال: «كنت غلامًا حدثًا، فصليت يومًا في المسجد الأعظم بمنبج. فلما انقضت الصلاة، أقبل غلام بمصلى ووسادتين، فطرحهما إلى جانب الحائط، وأقبل رجل طوال مخضوب اللحية ليس بطويلها، فجلس على ذلك المصلى، واستند إلى تلك الوسائد، فاجتمع إليه جماعة من أهل الأدب، فقلت: من هذا الشيخ؟ قالوا: سالم ابن عبد الرحمن كاتب هشام بن عبد الملك: فقلت: ما أنصرف بفائدة تعدل عندي حضور هذا المجلس واستماع ما يجري فيه، فملت إليهم، وجلست معهم، فخاضوا في فنون من الآداب، فلم أر فيهم أبرز معرفة من سالم، ولا أقل كلامًا، فثبت حتى تقوض المجلس، ثم دنوت منه، فقلت: يا عم، ما رأيت في الجماعة أحدًا هو أقل تصرفا في الأدب منك!. فقال: يا ابن أخي، وفطنت لذلك؟ قلت: نعم، قال: تلك فوائد النعم، زالت بزيالها. فقلت: أشهد أنك سالم الذي كنا نحدث عنه». وكان سالم[٣٣] قد ولد محمد بن عبد الحميد هذا من قبل أمه.

* * *

الهوامش:

(١) زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري (١١ق هـ =٤٥هـ). كاتب الوحي ومن أكابر الصحابة كان رأسا بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض، هاجر مع النبي (ﷺ) وعمره ١١ سنة.

(٢) نص الحديث في العيون ٤٢/١: (ضع القلم على أذنك فإنه أذكر للمملي به). ونص الحديث في صبح الأعشى ٣٩/٣: (يا معاوية، إذا كنت كاتبا فضع القلم على أذنك فإنه أذكر لك وللمملي).
ونصه فيه أيضًا: (يا معاوية إذا كتبت كتابا فضع القلم على أذنك). ونصه فيه أيضًا: (ضع القلم على أذنك يكن أذكر لك). وفي الجهشياري ص١٢: عن زيد بن ثابت أنه قال: كنت أكتب لرسول الله يوما، فقام لحاجة فقال لي: ضع القلم على أذنك، فإنه أذكر للمملي، وأقضى للحاجة.

(٣) في العيون ٣/١: «كان إدريس النبي عليه السلام أول من خط بالقلم وأول من خاط الثياب ولبسها وكان من قبله يلبسون الجلود».

(٤) البيت في تأريخ بغداد ٢١٧/٥ وروايته:
إذا جرح الكتاب كان قسيهم
دويا وأقلام الدوي لهم نبلا

(٥) ٥١م المائدة م.

(٦) حديث عمر بن الخطاب مع أبي موسى انظره بنصه في عيون الأخبار ٤٣/١ ومما جرى في عدا المجرى قول سهل بن بركة يهجو أبا نوح النصراني:
بأبي وأمي ضاعت الأحلام
أم ضاعت الأذهان والأفهام
من صد عن دين النبي محمد
ألـــه بأمـــر المسلمين قيام؟
ألا تكن أسيافهم مشهـــورة
فينا فتلك سيوفهم أقـــلام
انظر الرسالة العذراء ص ٤٤. قلت: ولست أدري كيف نوفق بين هذا الكلام وبين قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ سورة المائدة رقم الآية ٨٢.

(٧) انظر حديث عمر في عيون الأخبار ٤٣/١.

(٨) حنظلة ا لكاتب (ت نحو ٤٥هـ): هو حنظلة بن الربيع بن صيفي التميمي صحابي، ابن أخي أكثم بن صيفي. كان من كتاب النبي (ﷺ). شهد القادسية ونزل الكوفة ثم نزل قرقيسياء (بين الخابور والفرات) حتى مات في خلافة معاوية. انظر ترجمته في: الإصابة ٣٥٩/١ والأعلام ٣٢٢/٢.

(٩) الزبير بن العوام (٢٨ ق هـ = ٣٦هـ) أحد العشرة المبشرين بالجنة. انظر ترجمته في: تهذيب ابن عساكر ٣٥٥/٥ وصفة الصفوة ١٣٢/١ وحلية الأولياء ٨٩/١ والبدء والتأريخ ٨٣/٥ وخزانة البغدادي ٤٦٨/٢ و٣٥٠/٤.

(١٠) في (الصبح) ٤٤/١: جاء الزبير بن العوام إلى النبي (ﷺ) فقال: كيف أصبحت؟ جعلني الله فداك! قال: «ما تركت أعرابيتك بعد».

وفي (أدب الكتاب) ص ١٧٣: .. فقال: ما الذي بعدك جعلني الله فداءك. فقال: يا زبير: أما تركت أعرابيتك بعد.

(١١) البيت لحاتم الطائي وروايته في ديوانه ص ٦١: «فكن يا وهم ذو يتأخر» وذو: لغة طيء بمعنى الذي. والبيت في العيون ٥٠/١ بروايته في كتابنا هذا، وروايته في الشعر والشعراء ١٧٠/١: «الذي يتأخر» وحاتم بن عبد الله الطائي (ت ٤٦ ق هـ) فارس شاعر جواد جاهلي انظر ترجمته في: تهذيب ابن عساكر ٤٢٠/٣-٤٢٩ وتأريخ الخميس ٢٥٥/١ وشرح شواهد المغني ٧٥ والشعر والشعراء ٧٠ وخزانة البغدادي ٤٩٤/١ و ١٦٤/٢ ونزهة الجليس ٢٨٤/١ والشريشي ٣٣٢/٢ والأعلام ١٥١/٢.

(١٢) البيت بروايته هذه لعدي بن الرقاع في عيون الأخبار ٥٠/١، وهو له عند الصولي ص١٧٤ وفي الطرائف الأدبية للميمني ص ٨٧ والإيجاز والإعجاز ص ٤٣. وانظر ترجمة عدي بن الرقاع العاملي (ت نحو ٩٥هـ) ا لملقب بشاعر أهل الشام في: الأغاني ١٧٢/٨-١٧٧ وشرح الشواهد ١٦٨ والمرزباني ٢٥٣ والمؤتلف والمختلف ١١٦ ورغبة الأمل ٢١٢/٥ ثم ٢٩/٧ و ٤٨ ومجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ٢٤٥/١٥ و ٣٤٠ و ٤٥٠ والأعلام ١٠/٥.

(١٣) انظر النص في عيون الأخبار ٥٠/١.

(١٤) لم يخرج سورديل البيت، وهو في اللسان مادة (شدد) (٢٣٣/٣ طبعة صادر) وروايته: على كف ذابح. وشد عدي يده: قواه وأعانه.

(١٥) انظر النص في العيون ٤٤/١: «وحاجبك وجليسك.. والداخل عليك يعرفك بجليسك»، والنص في رسائل الجاحظ (طبعة هارون) ٤٠/٢ وروايته: «اعرف حاجبك وجليسك وكاتبك. فإن الغائب يخبره عنك كاتبك، والمتوسم بعرفك بحاجبك، والخارج من عندك يعرفك بجليسك».

(١٦) انظر النص في العيون ٤٤/١.

(١٧) رواية الحديث في النهاية لابن الاثير ١٨٥/١: «أتربوا الكتاب فإنه أنجح للحاجة». وفي الرسالة العذراء (طبعة مبارك ص ٢٦): أتربوا كتبكم فإنه أنجح للحاجة.

(١٨) وهو المستولي على أقليم جرزان (وثغره تفليس) في أرمينيا زمن المتوكل. وكان قد أحرق تغليس بعد أن خلع طاعة الخليفة فقتلته جيوش الخليفة التي قادها (بغا) التركي. وجيء برأسه إلى سر من رأي، فقال الشاعر:

أهلًا وسهلًا بك من رسول
جئت بما يشفي من التعليل
بجملة تغني عن التفصيل
برأس إسحاق بن إسماعيل
وفتح تفليس وصغد بيل

انظر معجم البلدان ٥٨/٢ و ٣٩٩/٣.

(١٩) هكذا في الأصل ولعلها: بان.

(٢٠) هو يحيى بن خالد البرمكي (ت ١٩٠هـ). انظر ترجمته في: إرشاد الأريب ٢٧٢/٧، وفيات الأعيان ٢٤٣/٢، البداية والنهاية ٢٠٤/١٠، البيان المغرب ٨٠/١، المسعودي ٢٢٨/٢، تأريخ بغداد ١٢٨/١٤ وكشف الظنون ١٥٩٤

والجهـشياري انظـر فهرسـته ص ٣٨٢-٣٨٤ والأعـلام ١٧٦/٩.

(٢١) انظـر الـنص في العقـد الفريـد ١٧٧/٤ والـصبح ١٤٣/١ والمحاسن والمساويء للبيهقي طبعة القاهرة ١٩٠٦م ٨٩/٢ وهو منسوب لرجل قابل عمرو بن مسعدة وزير المعتصم.

(٢٢) في العقد: كاتب خراج يحتاج إلى أن يعرف الزرع والمساحة والأشوال والطسوق والنقط والحساب.

وفي الصبح: يحتاج أن يعرف السطوح والمساحة والتقسيط خبيرا بالحساب والمقاسمات في البيهقي: يجب أن يعرف المساحة والذراع والأشوال والتقسيط.

(٢٣) في العقد: كاتب رسائل يحتاج إلى أن يعرف الفصل من الوصل والصدور والتهاني والتعازي والترغيب والترهيب والمقصور والممدود وجملا من العربية.

في الصبح: كاتب رسائل يحتاج إلى أن يعرف المفصول والموصول والمقصور والممدود والابتداء والجواب، حاذقا بالعقود والفتوح.

في المحاسن والمساويء: يجب أن يعرف الوصول والفصول والترغيب والترهيب والجوابات.

(٢٤) في العقد: وكاتب قاض: يحتاج إلى أن يكون عالما بالشروط والأحكام والفروع والناسخ والمنسوخ والحلال والحرام والمواريث.

في الصبح: كاتب قاض يحتاج أن يعرف الحلال والحرام والتأويل والتنزيل والمتشابه والحدود القائمة والفرائض والاختلاف في الأموال والفروج حافظًا للأحكام حاذقًا بالشروط.

في المحاسن والمساويء: يجب أن يعرف الحرام والحلال والتأويل والتنزيل والمحكم والمتشابه والمقالات والاختلافات.

(٢٥) في العقد: يحتاج إلى أن يعرف مع الحساب الأطعاع وشيات الدواب وحلي الناس. في الصبح: كاتب جند يحتاج أن يعرف الحلي والشيات.

(٢٦) في العقد: وكاتب شرطة يحتاج إلى أن يكون عالما بالجروح والقصاص والعقول والديات.

في الصبح: وكاتب شرطة يحتاج أن يعرف القصاص والجراحات وموضع الحدود ومواقع العفو في الجنايات.

في المحاسن والمساويء: يجب أن يعرف الشجاج والجراحات.

(٢٧) أول من عرف من الأدباء الكتاب المترسلين في أفريقية، له رسائل مجموعة نحو مائتي ورقة، ربطته مودة بعد الحميد الكتاب، عاد إلى أفريقية سنة ١٣٢هـ فمهد إليه الأمير عبد الرحمن بن حبيب الفهري بتدبير شؤون إمارته. انظر ترجمته في الفهرست ١١٨ والأعلام ٣٣٦/٢.

(٢٨) وزير من وزراء المتوكل، كان متمكنا من المتوكل وإليه الوزارة وعامة أعماله. انظر أخباره في الطبري ٢١٤/٩ فما بعدها.

(٢٩) الخبر في صبح الأعشى ٤٥٦/٢ -٤٥٨ مع اختلاف يسير في اللفظ.

(٣٠) سهل بن هارون (ت ٢١٥هـ): كاتب بليغ حكيم من واضعي القصص خدم الرشيد والمأمون، لقب ببزرجمهر الإسلام. كان شعوبيا. ولاه المأمون رياسة (خزانة الحكمة). انظر ترجمته في المراجع التالية: البيان والتبيين ٣٠/١ و ٥٠ وفوات الوفيات ١٨١/١ وإرشاد الأريب ٢٥٨/٤ وأمراء البيان ١٥٩/١-١٩٠ والعقد ٢٠٠/٦ وهدية العارفين ٤١١/١ ودائرة البستاني ٤٨٥/١ والأعلام ٢١١/٣.

(٣١) النص في (العقد) ٢٣٦/٤ منسوب لأحمد بن يوسف وروايته: «أما بعد، فإني لا أعرف للمعروف طريقا أوعر من طريقه إليك، فالمعروف لديك ضائع، والشكر عندك مهجور، وإنما غايتك في المعروف أن تحقره، وفي وليه أن تكفره».

(٣٢) هو عبد الملك بن صالح بن علي حبسه الرشيد بوشاية من قمامة بن أبي زيد. انظر الوزراء ص ٢٦٢.

(٣٣) سالم هذا كان ختن عبد الحميد بن يحيى، (أي والد زوجته)، وقد ولد لعبد الحميد منها ولده (محمد) المذكور في الخبر، فيكون سالم الجد الفاسد لمحمد بن عبد الحميد.

بقية «إشراقة» المنشورة على ص ٥٦

وروى الإمام أحمد في مسنده [برقم: ١٧٤٥٢] عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لقيت رسول الله ﷺ فقال لي: «يا عقبة بن عامر، صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك». أي ليفعل به ما يعد به واصلا؛ فإن انتهى فذاك وإلا فالإثم عليه. وقال الحكماء: كن للوداد حافظا وإن لم تجد محافظًا، وللخل واصلا وإن لم يكن مواصلا.

وروى الإمام أحمد في مسنده [برقم: ٢١٤١٥] عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أمرني خليلي ﷺ بسبع: «أمرني بحب المساكين، والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن لا أسأل أحدًا شيئًا، و أمرني أن أقول بالحق وإن كان مرًّا، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول: لاحول ولا قوة إلا بالله، فإنهن من كنز تحت العرش».

فليحذر المسلم أن يكون كالناعق يتبع كل صيحة، ويطير وراء كل هيعة ويستمع لكل صائح.

ويزيد هذا المعنى حديث نبوي آخر تصويرًا وتأكيدًا، فروى ابن ماجه في سننه [برقم:٢٣٧] عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله -ﷺ-: «إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر، مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه».

يقول القاري في شرح الحديث: «مفتاحًا للخير» أي: علمًا أو عملًا أو حالًا أو مالًا، و (مغلاقًا للشر وويل لعبد جعله الله مفتاحًا للشر) أي: للكفر والعصيان والبطر والطغيان والبخل، و سوء العشرة مع الإخوان. (مغلاقًا للخير): قال الراغب: الخير ما يرغب فيه الكل كالعقل مثلًا والعدل والفضل والشيء النافع، والشر ضده، والخير والشر قد يتحدان، وهو أن يكون خير الواحد شر الآخر، كالمال الذي يكون رياء كان خيرًا لزيد وشرًا لعمرو».

وكان من دأبه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حين يبعث ولاته وعماله إلى الأقطار المختلفة أن يزودهم بالنصائح، حتى يكونوا للناس أسوة حسنة، ويجمعوا قلوب الناس على الإسلام، فلما بعث أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن كلًّا منهما على إقليم، زودهما بنصائح غالية فأمرهما بثلاثة، ونهاهما عن ثلاثة. روى الإمام البخاري في صحيحه [برقم:٢٦٠٨] عن أبي موسى قال: أقبلت إلى النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- ومعي رجلان من الأشعريين، أحدهما عن يميني، والآخر عن يساري، ورسول الله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- يستاك - وفي رواية: يستن بسواك بيده، يقول: أع أع، والسواك في فيه كأنه يتهوع، فكلاهما سأل - وفي رواية: فقال أحد الرجلين: أمرنا يا رسول الله، وقال الآخر مثله-، فقال: «يا أبا موسى، أو يا عبد الله بن قيس، قال: قلت: والذي بعثك بالحق! ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل، فكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته قلصت، فقال: «لن -أو لا- نستعمل على عملنا من أراده، -وفي رواية: إنا لا نولي هذا من سأله، ولا من حرص عليه-، ولكن اذهب أنت يا أبا موسى- أو يا عبد الله بن قيس- إلى اليمن»، ثم أتبعه معاذ بن جبل،- قال: وبعث كل واحد منهما على مخلاف، قال: واليمن مخلافان-، ثم قال: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا».

قال عياض البستي في شرح الحديث: «فيه ما يجب الاقتداء به من التيسير فى الأمور، والرفق بالنَّاس، وتحبيب الإيمان إليهم، وترك الشدة والتنفير لقلوبهم، لا سيما فيمن كان قريب العهد به. وكذلك يجب فيمن قارب حد التكليف من الأطفال ولم يتمكن رسوخ الأعمال فى قلبه ولا التمرن عليها، ألا يشدد عليه ابتداء؛ لئلا ينفر عن عمل الطاعات. نعم، وكذلك يجب للإنسان في نفسه في تدريبها على الأعمال إذا صدقت إرادته ألا يبتدئها أولًا إلا بتدريج وتيسير، حتى إذا أنست بحاله ودامت عليها، ينقلها لحال آخر، وزاد عليها فى عمل أكثر من الأول، حتى يرى قدر احتمالها، ولا

يكلفها ما لعلها تعجز عنه ولا يدوم عليه، فقد ذم هذا ﷺ وحض على الأحسن؛ لقوله ﷺ: «كلفوهم من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا». ففي الحديث دلالة على أن من واجب العالم والواعظ والمقبول من قوله مأمور بألا يقنط الناس، وييسر على المبتدئ في الإسلام ولايباغته بالشدة».

ومن صور الإيجابية في الإسلام أن النبي صلى الله سأله أصحابه أن يدعو على المشركين فأبى. روى مسلم عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين قال: «إني لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمة».

وإذا سئل أن يدعو لأحد بالهداية وبالخير بادر إليه، فروى مسلم في صحيحه [برقم: ٢٤٩١] أبو هريرة، قال: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يومًا فأسمعتني في رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما أكره، فأتيت رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأنا أبكي، قلت: يا رسول الله، إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة. فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «اللّٰهم اهد أم أبي هريرة». فخرجت مستبشرًا بدعوة نبي الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلما جئت فصرت إلى الباب، فإذا هو مجاف، فسمعت أمي خشف قدمي، فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعت خضخضة الماء، قال: فاغتسلت ولبست درعها، وعجلت عن خمارها، ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، قال: فرجعت إلى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فأتيته، وأنا أبكي من الفرح، قال: قلت: يا رسول الله، أبشر قد استجاب الله دعوتك، وهدى أم أبي هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرًا، قال: قلت: يا رسول الله، ادع الله أن يحببني أنا و أمي إلى عباده المؤمنين، ويحببهم إلينا، قال: فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «اللّٰهم حبب عبيدك هذا - يعني أبا هريرة - وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين» فما خلق مؤمن يسمع بي ولايراني إلا أحبني».

إيجابية لا سلبية

الإسلام دين الله الخالد الباقي ما بقي الليل والنهار، وما تعاقب الملوان، والناظر في توجيهاته وإرشاداته يرى بوضوح ما فيه من إيجابية وعمل، ورفض للسلبية والبطالة والكسل و التواكل، والتخلي عن المسؤوليات دينية كانت أو دنيوية.

ويحرص الإسلام على أن يكون المسلم شخصية مستقلة غير خاضعة لهوى أحد أو رغبته، ويعامل الناس معاملة حسنة ويصلهم وإن قطعوه، ويحسن إليهم وإن أساؤوا إليه، فروى الترمذي في سننه [برقم:٢٠٠٧] عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا».

يقول الطيبي في شرح الحديث: «...هو الذي يتابع كل ناعق، ويقول لكل أحد: أنا معك؛ لأنه لا رأي له يرجع إليه، ... ومعناه المقلد الذي يجعل دينه تابعًا لدين غيره بلا روية و تحصيل برهان... قوله: «تقولون: إن أحسن الناس ...» الخ بيان وتفسير لـ(إمعة) على نحو قول الشاعر:

الألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

لأن معنى قوله: (إن أحسن الناس) (وإن ظلموا) أنا نقلد الناس في إحسانهم وظلمهم ونقتفي أثرهم.قوله:(ولكن وطنوا أنفسكم)... ومعناه: أوجبوا على أنفسكم الإحسان بأن تجعلوها وطنًا للإحسان...».

(البقية على ص ٥٣)

أبو عائض القاسمي المباركفوري